التنسيب الأدبي
برنامج الثقافة الأدبية

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني: وفاء الساطي

إميل فاغيه

التنسيب الأدبي

برنامج الثقافة الأدبية

Initiation into Literature

Emile Faguet

ترجمة حنا عبود

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الترجمة (1)
2021

تمهيد

التنسيب *Initiation* طقوس تختلف من قوم إلى قوم ومن دين إلى دين في الشعوب القديمة. والمقصود تهيئة المنتمي الجديد، مهما كان عمره، بحسب شروط الدين أو العرق أو الجمعية أو الحزب أو المؤسسة. ولا يتم التنسيب إلا بعد أن يستكمل المنتمي الجديد الأدوات المطلوبة التي تعدّه إعداداً جيداً لممارسة ما انتمى إليه. ومن ضمن هذه الأدوات تلقين المبادئ، وإن كانت بعض الأديان أو الفرق أو القبائل تؤخر التلقين إلى ما بعد التنسيب، كبعض فرق المسيحية التي تتم طقوس التنسيب في سن صغيرة قبل استكمال الوعي العقلي.

وقد اختار المؤلف مصطلحاً لم يستخدم في الميدان الأدبي، لا من قبل ولا من بعد، وهو **التنسيب الأدبي**، أي الإعداد الأدبي المطلوب لتمكين المنتمي من ممارسة انتمائه على الشكل الأكمل، ولهذا اختار ما يجب أن يعرف من الأدب حتى يكون المنتسب على علم بالإطار العام لهذا المحيط الكبير الذي اسمه الأدب. وقد أدرج الفلسفة وألوان التفكير الأخرى كالسياسة والاجتماع... الخ من ضمن الأدب، ولم يدخل علم النفس لكونه علماً وليداً في القرن التاسع عشر حيث تنتهي المعلومات اللازمة للتنسيب، فالمؤلف لم يستهلك من القرن العشرين سوى عقد ونصف العقد. ثم إن الكتاب ليس مسحاً لكل أدب في العالم بل لما هو لازم بحسب نظرة المؤلف لشروط الانتساب. فهو ليس "تلقيناً" بل إنه برنامج له.

واجتهد المؤلف أن يلخص الأثر الأدبي بتقديم بضع كلمات جوهرية تحمل مضمونه، أما الباقي فعلى المنتسب أن يسعى إلى المعرفة المرغوبة ويتوسع فيها.

المترجم

مقدمة

هـذا الكـراس، كمـا يشـير عنوانـه، مصـمم لتبيـان الطريـق للمبتـدئ، ليرضي، أو بالأحرى ليثير اهتمامه الأساسي. إنه يقدم فكرة وافية لمسيرة الوقائع والأفكار. فيقود القارئ، ببعض السرعة، من النشأة البعيدة إلى معظم ما أنتجه العقل البشري مؤخراً.

ويطمع أن يكون ذخيرة مناسبة يعود إليها الفكر لرؤية النظرة العامة لمرحلة من المراحل - وما يربطها بما يليها أو ما يسبقها. ويرمي قبل كل شيء أن يكون إطاراً فيه، عبر مجرى المزيد من الدراسات، أفكار جديدة أكثر تفصيلاً وأعمق اختباراً. ونرجو أن يحقق هدفه في الحض على البحث والتأمل، إن أعدّ إعداداً صحيحاً.

المؤلف

الفصل الأول

الهند القديمة

أسفار الفيدا

يملك قدامى الهنود، الذين يتكلمون السنسكريتية أدباً ربما يعود إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح. فأولاً امتلكوا، مثل جميع الأعراق، أدباً مقدساً مرتبطاً ارتباطاً حميماً بدينهم. وأقدم كتب الأدب المقدس هي أسفار الفيدا *Vedas*. إنها تصف وتمجد الألهة التي كانت تعبد، أي أغني *Agni* رب النار، رب الموقد المنزلي، رب النار السماوية (أي الشمس) ورب نار الجوّ (أي البرق)؛ وإندرا *Indra* رب الجوّ، المماثل لزيوس *Zeus* الإغريق؛ وسوما *Soma* القمر؛ وفارونا *Varuna* القبة الليلية، الرب الذي يكافئ على الخير ويعاقب على الشر؛ ورودرا *Rudra* الرب الغضوب، وهو أميل إلى الشر ولا يحسن التصرف، مع أنه أحياناً يساعد؛ وهناك أيضاً آلهة آخرون، كثيرون جداً.

أسلوب أسفار **الفيدا** هو دائماً شعري ومجازي. وهي تتضمن نوعاً من الميتافيزيقيا وكذلك استعارات متتابعة.

بوذا

البوذية، ديانة فلسفية، قريبة الشبه بالمسيحية، نشرها الساكياموني *Sakyamuni* الملقب ببوذا (أي حكيم شعب الساكياس) في الهند في 550 ق. م. على وجه التقريب، فخلقت أدباً جديداً. علمت، كما يجب أن نتذكر، المساواة بين الطوائف في نظر الدين والتقمص والعفة والبعد عن العواطف والرغبات بغية

الوصول إلى الهدوء المطلق *nirvana*. واستوحى الأدب أولاً بأول المأثورات *gnomic* أي الأقوال الجامعة المانعة الشبيهة بأقوال فيثاغوراس *Pythagoras*، مع ميل نحو القصص والأمثال الأخلاقية، كما في الإنجيل.

فيما بعد اتسع هذا الأدب إلى قصائد ملحمية ضخمة بل هائلة، ومن أهمها **الماهابهاراتا** *Mahabharata* و**الرامايانا** *Ramayana*.

الماهابهاراتا والرامايانا

الماهابهاراتا (أي التاريخ العظيم للبهاراتيين) هي ليجندة *legend* أو رواية شعرية تقطعها استطرادات أخلاقية، مع أحداث غامضة تتعلق بالموضوع، مع خطابات وصلوات. وهناك أحداث خلاقة مليئة بالحساسية المرهفة، والحنان المثير - أي الجمال البشري، بحيث يمكن مقارنته بوداع هكتور *Hector* وأندروماك *Andromache* عند هومر؛ وفي كل مكان، وسط التفاهة والرتابة، هناك خيال قوي دفاق.

و**الرامايانا** التي وصل عن طريقها اسم مؤلفها فاليكي *Valmiki* إلينا، هي قصيدة أضخم وغير منتظمة. هناك أقسام منها تعتبر بالنسبة إلينا غير واقعية، وهناك أقسام أخرى تقارن بأفخم وأعظم ما في الشعر الملحمي كله. وبالعودة إلى فكرتها، فإن موضوع **الرامايانا** بسيط جداً؛ إنه قصة الأمير راما، يخلع عن عرشه، وقد رأى زوجته العزيزة سيتا *Sita* يخطفها الشيطان المتوحش رافانا *Ravana*، فعقد حلفاً مع القرود الطيبين ومعهم مدّ جسراً فوق البحر للوصول إلى الجزيرة التي احتجزت فيها سيتا، فهزم رافانا وذبحه، واستعاد سيتا، وأخيراً عاد سعيداً إلى مملكته، التي أيضاً غزيت مرة أخرى.

أبرز سمة خارجية لـ **الماهابهاراتا** هي خلطها الدائم بين الإنسان والحيوان، الخلط الذي يشعر المرء أنه منسجم مع عقيدة تقمص الأرواح. فليس فقط القرود بل الصقور والنسور والغزلان الخ تدخل العمل الأدبي وتشكل شخصيات هامة. نحن في الحقبة التي تتكلم فيها الحيوانات. والمعارك عديدة وقد وصفت بتفصيل

كبير؛ والراماياناـ هي **إلياذة** *Iliad* الهنود؛ فالمشاهد العاطفية كعواطف الحب والصداقة والعرفان بالفضل ليست نادرة، وأحياناً تكون متقنة رائعة. والقصيدة بكاملها مشربة بشعور إنساني عظيم وبطولة وعدالة. فالنصر للخير والحق؛ وتسمح الآلهة أن العدل سوف يكابد فيضطر إلى الصراع؛ ولكن دائماً يكون لوقت قصير والسعادة المستحقة تكون في النهاية للجميع.

بعد هاتين الملحمتين العملاقتين هناك بين الهنود عدد من القصائد القصصية الأصغر، تختلف جداً في اللهجة والمزاج، وتوحي بالتعاقب المتواصل لأهم المدارس وأكثرها حيوية في الأدب. وكلما اقتربنا من زمننا - أي نحو القرنين الخامس أو السادس من عصرنا- انفصل، إن صح التعبير، الشعر الغنائي والدراما عن الملحمة وأقاما مزاياهما الخاصة. فأغاني الحب أو الحقد أو الحزن أو النصر احتلت مكاناً فسيحاً؛ كانت أميل إلى الاكتئاب من الحزن، لأن الهند أرض التفاؤل، أو، على الأقل، أرض الاعتزال.

الشعر الدرامي

أما بالنسبة إلى الشعر الدرامي فإنه غريب جداً؛ فهو غير ممتزج بالملحمة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ ولكنه مختلط باستمرار مع أوصاف الطبيعة ومع الرسم اللغوي للطبيعة والتوسل والصلاة للطبيعة. والشاعر الهندي الدرامي لا يفصل الإنسان عن الهواء الذي يتنفس ولا عن العالم المحيط به؛ وفي تذكر لحظة النهار أو الليل التي يبرز فيها المشهد، في الساعة الفعلية، فلا شك أن الشاعر ينصاع لقانون يمليه عليه جمهوره، فيحتفظ بتواصل شخصياته مع الأرض والسماء، مع الفجر الذي يصفه والقمر الذي يرسمه والمساء الذي يجعله مرئياً، والنباتات التي يصورها ذابلة أو منتعشة، والطيور التي تقدم عرضاً في كل مكان من البلاد أو تعود إلى أعشاشها الخ.

من المظهر الدراماتيكي الصرف، تثير هذه المسرحيات العاطفة أو الغرابة، وتمتلك قوة اختراق وبسيكولوجيا عميقة. ومعظم الأعمال الدرامية الشهيرة لا

تزال لدينا من المسرح الهندي وهي **عربة الصلصال** والمسرحية المؤثرة اللطيفة **ساكونتالا** *Sakuntala* جوهرة الأدب الهندي، من عمل الشاعر كاليداس *Kalidas*، الذي اشتهر أيضاً كشاعر غنائي.

شعر المأثورات

شعر المأثورات، أي شعر الأمثال المكثفة، الذي، كما أشرنا من قبل، حظي منذ القديم بالتقدير بين الهنود، واستمر طويلاً يحظى بالاستحسان. دائماً كان حكيماً وفي الأغلب هو شعر مثقف. مجموعة **بارتاري** *Barthari* التي تعود إلى القرن السادس أو السابع ق. م. تشتمل على أفكار التي يفتخر بها أرقى الماديين في معظم أحقاب التنوير. "الثروة، الوفيرة أو الصغيرة، التي نقشها الخالق على جبينك سوف تحصل عليها بالتأكيد؛ وفي الصحراء كنت، أو في مناجم ذهب ميرو *Meru* فلن تستطيع الحصول على أكثر مما كتب لك. مهما عذبت نفسك وتواضعت أمام القوة. الوعاء لا يستطيع أن يستوعب من البحر أكثر مما يستوعب من بئر".

ويمكن أن يقوم بهذا رجل حديث معارض لـ لاروشفوكولد *La Rochefoucauld*: "المتواضع فقير في الروح، والتقي منافق، والشريف ماكر، والبطل بربري، والناسك أحمق، والصريح ثرثار، والحكيم متذبذب. أخبرني أي فضيلة بين هذه الفضائل لا يستطيع الخبث البشري أن يحط من قدرها؟"

وهنا، أخيراً، حقيقة لكل أوان: "من السهل إقناع الجاهل، والأسهل إقناع الحكيم جداً؛ ولكن من يملك تباشير حكمة فإن براهما *Brahma* نفسه لا يضلله".

استمر الأدب الهندي في الإنتاج مع أنه فقد الكثير من خصوبته، حتى القرن الخامس عشر أو السادس عشر من عصرنا. ويمكن القول من دون مبالغة إن مجاله امتد على مدى خمسة وعشرين قرناً. إنه يمتلك ميزة نبيلة فريدة بحيث يعتبر ولا شك الوحيد الذي لا يدين لأي شيء آخر إلا لأصالته الأدبية.

الفصل الثاني

الأدب العبري

التوراة

للعرق العبري أدب منذ عام *1050* ق. م. وهو يجسد في قصائد تلك الليجندات التي انتشرت بين الشعب منذ أقدم مراحل وجودهم. وتلك القصائد التي جمعت مؤخراً في مجموعة واحدة، شكلت منذ عام *400* ما نسميه **التوراة** *Bible* ومعنى الكلمة "سفر الأسفار".

في **التوراة** تواريخ (سفر التكوين وهو تاريخ اليهود حتى يشوع، وسفر يشوع، والقضاة والملوك الخ) ثم موضوعات قصصية (راعوث وأسدراس وطوبيت وجوديت وأستير) ثم أسفار الفلسفة الأخلاقية (سفر الأمثال والجامعة وسفر الحكمة وسيراخ) ثم أسفار ذات سمة خطابية وغنائية (مزامير داود وكل الأنبياء) وأخيراً هناك عمل منفرد لا يزال يعتبر غنائياً ولكن فيه آثاراً من النمط الدراماتيكي (نشيد الأنشاد).

التلمود

إلى الأسفار التي ضمتها التوراة لا بد أن نضيف **التلمود** *Talmud* وهو مجموعة من الشروح على القوانين المدنية والدينية لليهود، التي تشكل ملحقاً لا ينفصل عن التوراة، لمن يرغب أن يفهم الحضارة العبرية.

الأناجيل

لا تمتلك الأناجيل التي نشرت باللغة اليونانية شيئاً من العبرية سوى ما صنفه اليهود أو تلاميذهم الوسطاء واحتفظت بشيء من أسلوب كتابة اليهود.

الكتابات التوراتية

اعتبرت الكتابات التوراتية من وجهة النظر الأدبية فقط أنها تشكل صرحاً من أضخم صروح الفكر الإنساني. فالتعاطف مع العظمة وحتى مع اللانهاية في سفر التكوين؛ والحساسية العميقة والبسيطة في أسفار يشوع وطوبيت وأستير، والفصاحة والعاطفة الدينية الدقيقة كما في سفر أيوب وسفر مزامير داود؛ والغنائية البهيجة المتشددة والملتهبة ترافقها قوة هجائية لا تكاد تصدق كما في أسفار الأنبياء؛ والحكمة التي تشبه حكمة الرواقيين والأبيقوريين الجادين كسفر الجامعة وسفر الأمثال؛ في كل مكان هناك خيال مدهش، ودائماً منضبط إن لم نقل إنه مقيد، وحساسية غنائية يذكراننا بالإبداعات المرتبكة لجنسية الإغريق واللاتين، بينما يتخطاهما في الجمال سفر نشيد الأنشاد، وتتخلل هذه العظمة وهذا الجلال البسيط، وهذه الرفعة الطبيعية والسهلة التي لا توجد في الدرجة ذاتها إلا مصادفة عند هومر والتي تظهر أنها ميزة الشعب الذين كانوا أول من آمن بإله واحد. وهذا ما يصنع، بصورة مستمرة، الجمال المدهش للتوراة وهو ما يفسر لماذا جميع الأمم، من أصل آخر، كانت حتى يومنا هذا، ولا تزال تتابع جعل التوراة دراستهم المتواصلة، ويستمدون منها الشجاعة والهدوء وتمجيد النفس والإثارة الفريدة لأصالتها الشعرية والأدبية.

وكما هي الحال في كثير من الصروح الأدبية الأخرى، من المحتمل، بعيداً عن أي رغبة، أن التوراة أحيت الأديان العديدة والهامة التي نشأت منها.

الفصل الثالث

الإغريق

هومر

أشهر كاتب يوناني معروف هو هومر، ولا نستطيع مطلقاً أن نحدد في أي مرحلة عاش.

منذ القرن السابع عشر والسؤال المطروح إن كان وجد أو إن كانت قصائده ليست جمعاً لأناشيد ملحمية شاعت في اليونان القديمة والتي منذ مرحلة حديثة قيل إنها لبيسيستراتوس *Pisistratus* وقد جمعت في مجموعتين من القصائد الفخمة المتناسقة، والفضل يعود إلى بعض الترتيب والتحرير. في مطلع القرن التاسع عشر قبل المثقفون عموماً أن هومر لم يوجد قط. والآن يعودون إلى الاعتقاد أن هناك هومرين فقط، أحدهما مؤلف الإلياذة والآخر مؤلف الأوديسة *Odyssey*.

الإلياذة

الإلياذة قصة غضب أخيل *Achilles*، واعتزاله بعيداً عن أصدقائه الذين حاولوا حصار طروادة *Troy* وعودته إليهم.

هي قصيدة الوطنية. مليئة بالروح التي عندما ينقسم الشعب على ذاته، فكل المحن تقع وتسيطر عليه. وقد أهين أخيل ظلماً، فمنع أنصاره من الإسهام في الحرب؛ وعندما أشرف الإغريق على الفناء يعود إليهم انتقاماً لموت أعز صديق له وبذلك ينجيهم من الهلاك.

الإلياذة مليئة في معظمها بالمعارك، التي تنوعت تنوعاً ماهراً. بعض الموضوعات، من أمثال وداع هكتور لزوجته أندروماك *Andromache* عندما غادرها للقتال، أو الملك بريام *Priam* الذي جاء والدمع في عينيه ليطلب من أخيل جثمان ولده هكتور حتى يدفنه بوقار، هما من بين أجمل المقاطع التي أنتجها الإلهام البشري.

الأوديسة

هي أيضاً قصيدة وطنية، لوطن صغير، للبلاد الأم. إنها قصة يوليسيس *Ulysses* بعد حصار طروادة واستعادة إيثاكا *Ithaca* الجزيرة الصغيرة التي هو ملكها، واستغرقت استعادتها عشر سنوات. وما خلق وحدة القصيدة، وما شكل عمودها الفقري هو الدخان الذي يظهر فوق منزل يوليسيس، والذي يتجلى له دائماً في حلم تنسجه آماله ورغباته، إنه المنزل الذي يريد أن يراه ثانية قبل أن يموت، وفكرة الحلم تعيقه في محنته وتسبب له ازدراء كل المباهج في طريقه إلى هناك. إن مغامرات يوليسيس الألف وإقامته مع الحورية كاليبسو *Calypso* ومخاطراته المرعبة في كهف العملاق بوليفيموس *Polyphemus* وبالقرب من جزيرة السيرينات *Sirens* والعواصف التي نجا منها، والكرم الذي تلقاه من الملك ألسينوس *Alcinoüs* والزيارة التي قام بها إلى ديار الموتى - الذين من بينهم أخيل الآسف على مغادرته الأرض ويفضل أن يكون فلاحاً بين الأحياء من أن يكون ملكاً بين الموتى؛ فهناك لمسات من القوة والغرابة والاهتمام والمشاهد التصويرية التي استوحتها كل الآداب التالية والتي لا تزال تبهج كل الأعراق.

هسيود

يأتي بعد هومر على الأرجح، وقد ترك هسيود *Hesiod* قصيدتين عظيمتين، إحداهما عن عائلات الآلهة **الأسرة المقدسة** *Theogenia* والأخرى عن أعمال الإنسان (**الأعمال والأيام**). والثيوغونيا قيمة جداً عندنا لأننا نتعلم منها وتجعلنا نفهم كيف فهم الإغريق الله، وتجلياته المختلفة وتطوره، إن جاز القول، عبر

العالم. فـ **الأعمال والأيام** قصيدة مليئة بكل من الحزن والشجاعة. فالمؤلف يرى العالم آثماً ويرى الناس ظالمين؛ ولكن دائماً يستنتج أنه بالقدرة والمثابرة والعناد يمكن أن ينقذ المرء نفسه من أي شيء، وأن سوء الحظ الوحيد الذي يجب أن نعرفه هو اليأس.

شعراء الرثاء والغناء

من أقدم العصور، من القرن السابع، وربما من القرن الثامن قبل العصر المسيحي، كان للإغريق شعراء رثاء وغناء - أي شعراء يدخلون الشعر في عواطفهم الشخصية، من أفراح وأحزان شعروا بها كبشر. من أمثال كولينوس *Callinos* والشاعر الهجاء أركيلوخوس *Archilochus* وسيمونيدس الأمورغوسي *satiric Simonides of Amorgos* والشاعر الحربي تيرايوس *Tyrtaeus*. وهناك شعراء جعلوا الشعر منسجماً مع الموسيقى: ألكايوس *Alcaeus* والشاعرة سافو *Sappho* وأناكريون *Anacreon* وألكمان *Alcman*. ويبدو أن ألكايوس كان الأعظم بين شعراء الإغريق تدل على ذلك المقاطع الشعرية التي في حوزتنا وعن طريق قصائد هوراس *Horace* الغنائية التي هناك أسباب للاعتقاد أنها تقليد لأشعار ألكايوس.

ولدينا القليل من الشاعرة سافو يمكننا من الحكم أنها كانت دقيقة، ولكن عبر العصور القديمة تمتعت بمجد يعادل أعظم الأمجاد. فقد غنت بنوع خاص الحب وبطريقة تقود إلى الاعتقاد أنها لم تنج من الهوى.

وغنى أناكريون بالطريقة ذاتها وبالسحر وبالروعة وبالإبداع الذكي الفاتن. كان أبيقورياً في الشعر (قبل أن يولد أبيقور) ومنه ولد نمط من الأدب عرف باسم الأدب الأناكريوني، الذي انتشر في العصور القديمة واستمر حتى الأزمنة الحديثة.

كتاب النثر

أخيراً ولد النثر، في القرن السادس قبل المسيح، مع الفلاسفة طاليس *Thales* وهيراكليت *Heraclitus* وأناكساغوراس *Anaxagoras* ومع المؤرخين الذين على أيديهم بقيت هذه الحقبة شهيرة وبالأخص هيرودوت *Herodotus*.

هيرودوت

في التاريخ العام لزمنه ومن الانطلاق المباشر منه، لم يكن بعيداً عن الشعر الملحمي. أسلوبه شفاف ودافئ، ويمتلك قوة عذبة في التمييز، وذوقاً واهتماماً في طرق الشعوب الأجنبية، خيال مبهج وسهل من دون ادعاء فلسفة التاريخ أو البحث في أخلاقية التاريخ. كان قبل كل شيء كاتباً مبهجاً.

إيسوب

إلى هذه الفترة (مع أن هذا مخاطرة إلى حد ما) يمكن أن ننسب إيسوب *Aesop* الذي لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه كتب الحكايات التي قلدتها الأجيال المتعاقبة. والمجموعة التي نمتلكها تحت اسمه **حكايات إيسوب** هي واحدة من تلك التقليدات، وضعت بعد موته، ولكن لا يمكن تحديد تاريخ ظهورها.

بندار

بندار *Pindar* الطيبي وسع ونشر النمط الغنائي. وبفضله حافظ على قوته وروحه العالية وشعريته وعلى اندفاعه النبيل إن جاز القول؛ ولكنه أدخل في الملحمة سرد الليجندات القديمة، وأفعال قدامى الأبطال ومآثرهم، فأثر هذا إلى درجة أن أعظم الشعراء الغنائيين الإغريق هو مؤرخ. استطاع الارتقاء إلى الأفكار العالية والسامية والتعبيرات الراقية النبيلة، والاضطراب النبيل الذي أفرط في إطرائه، والذي يمتاز بمزيد من الدقة، فاعتبر بندار نمطاً حقيقياً للأسلوب الرفيع والشعري، وقد قلده تقريباً كل الشعراء الطموحين ابتداء من رونسار *Ronsard*. واكتفى الشعراء الحكماء أمثال هوراس بمدحه. ومن القطع الباقية لنا من شعره نجد أن فيه دافعاً شديداً لقراءته.

التراجيديا الإغريقية

التراجيديا الإغريقية هي إحدى معجزات العقل البشري، بدأت في القرن السادس ق. م. ولدت من الشعر الديثرامبي *dithyramb* الحماسي. والديثرامب عبارة عن أغنية في جوقة لتكريم إله أو بطل. ومن هذه الجوقة ظهر الممثل الواحد الذي يغني مادحاً الإله، والذي عليه ترد الجوقة. وعندما صار هناك، بدلاً من الممثل الواحد، ممثلان ينخرطان في الحوار وترد عليهما الجوقة، ولدت القصيدة الدرامية. وعندما صار هناك ثلاثة - ومن النادر أن يكون أكثر من ذلك - وجدت التراجيديا، كما فهمها الإغريق.

تيسبيس؛ أسخيلوس؛ سوفوكليس

تيسبيس *Thespis* هو أقدم من نعرفه نقل التراجيديات البدائية من مدينة إلى مدينة في أتيكا *Attica*. ثم جاء أسخيلوس *Aeschylus* الذي كانت تراجيديته قوية جداً ومشربة بجلال مرعب؛ وكانت من قبل صارمة وكهنوتية؛ ثم جاء سوفوكليس *Sophocles* وهو فيلسوف ديني، وكان لديه ميل إلى الدين القديم وفن إضفاء السمة الأخلاقية، وشاعر غنائي عظيم، وسيد الحوار والفصاحة والإثارة، يعرف كيف يبني ويدير قصيدة درامية بمهارة لا حد لها، ولا نستطيع أن ننكر عليه صفة الشعر الدرامي وهو الذي حقق مفهوم النموذج الكامل.

يوريبيدس

يوريبيدس *Euripides* أقل تديناً كفيلسوف، وأحياناً يوحي بالسفسطائي وإلى حد ما بالخطيب البلاغي، ولكنه مليء بالأفكار والفصاحة ومثير للعاطفة و"الأعظم تراجيدية" (أي الأعظم شجىً) من كل الدراميين، كما لاحظ أرسطو *Aristotle*، والأعظم حداثة وأيضاً أحد أعظم من نفهمه، وكان المصدر الحقيقي من حيث أن تراجيدياته لو نقلت إلى العصور الحديثة لكانت أكثر تمرساً من تراجيدياتنا.

أعظم مؤلفات أسخيلوس: **سبعة ضد طيبة** وبروميثيوس **مكبلاً** وأعظم مؤلفات سوفوكليس: **أنتيغوني** و**أوديب الطاغية** (أوديب ملكاً) و**أوديب في كولون**؛ وأعظم مؤلفات يوريبيدس: **هيبوليت** و**إفيجينيا**.

بعد يوريبيدس استنفدت التراجيديا ولم تنتج سوى مؤلفات من الدرجة الثانية.

الكوميديا

الكوميديا *Comedy* تتمتع بوجود أطول. غامضة في أصلها، ولكن دون شك انطلقت من النكات المبتذلة التي تتبادلها الطبقات الدنيا في ساعات المرح، فكانت في البداية خيالية تماماً، تتألف من حوار، خطابي أو غنائي أو هجائي، حتى ملحمي في بعض الأحيان. ولها، مثل التراجيديا، جوقة بقي منها الجانب الغنائي. كانت شخصية - أي إنها تهاجم مباشرة معاصرين معروفين، أحياناً بالاسم وأحياناً بإحضارهم إلى خشبة المسرح. والمؤلفون المشهورون لهذه "الكوميديا القديمة" هما يوبوليس *Eupolis* وكراتينوس *Cratinos* اللذان بقي لنا منهما بعض القطع، وأرستوفانيس *Aristophanes* الذي وصلت مؤلفاته إلينا.

أرستوفانيس

كان شاعراً عظيماً، مع دعابة حادة الذكاء وأيضاً قوة غنائية لا نظير لها، مع سوقية عفوية تصدم في الغالب، ورفعة في الأفكار واللغة التي تعليه إلى قمم أسخيلوس وسوفوكليس. كان واحداً من أعظم العقول الشعرية التي أنتجها العالم. وأعظم إنجاز له مسرحية **الضفادع**، أقدم عمل معروف في النقد الأدبي، وفي شكل دراماتيكي أيضاً، حين يعقد مقارنة بين أسخيلوس ويوريبيدس ويتهكم بقسوة على الأخير؛ ومسرحية **الغيوم** التي يسخر فيها من السفسطائيين؛ ومسرحية **الزنابير** حيث يسخر من الهوس الأثيني لنظام الحكم، ويمجد تمجيداً كبيراً الأثينيين القدامى أيام الماراتون *Marathon*.

ميناندر

بعد هذه "الكوميديا القديمة" تأتي مباشرة "الكوميديا الوسطى" التي يحظر فيها تقديم شخصيات والتي ضرب منها أرستوفانيس مثلاً وأسلوباً في مسرحيته **بلوتوس** *Plutus*. فيما بعد، في القرن الرابع قبل المسيح، مع الرجل اللبق الذكي الحصيف ميناندر كانت "الكوميديا الجديدة" شبيهة لمسرحيات بلاوتوس *Plautus* وتيرنس *Terence* ولمسرحياتنا في القرن السابع عشر.

تيوسيديس

بالعودة إلى زمن بركليس *Pericles* تطور النثر الأتيكي على أيدي المؤرخين والحكماء والفلاسفة. تيوسيديس *Thucydides* أسس علم التاريخ الحقيقي، استقاه من المصادر، ودعمه وقواه بكل المعلومات والدعم التي يمكن للمؤرخ الماهر أن يجمعها ويختبرها ويسيطر عليها. وكان تيوسيديس ككاتب موجزاً صريحاً شفافاً ويمتلك رهافة عاقلة سائغة. وقد أدخل في تاريخه خطابات متخيلة بين شخصيات تاريخية سمحت له أن يبين الحالة العامة لليونان أو أجزاء خاصة من اليونان في أزمنة هامة. ولا يعرف لماذا هذه الخطابات كتبت بأسلوب يختلف عن بقية الكتاب، فهي حكيمة وجميلة ولكن دقيقة جداً ومضمرة كما لو أنها بالتالي كتبت حتى تكون عسيرة جداً على الفهم.

هيبوقراط

خلق هيبوقراط *Hippocrates* الطب العلمي، طب المراقبة، رافضاً المعجزات باحثاً عن الأسباب الطبيعية للأمراض، ومفتتحاً العلاج المنطقي. له سبعة عشر عملاً سميت **الهيبوقراطيات** تنتمي إلى مدرسة، قد يكون بعضها له.

السفسطائيون والخطباء

تطورت اللغة إلى مزيد من الليونة على أيدي المتعلمين والبارعين والسفسطائيين المبدعين (غورجياس *Gorgias* وبروتاغوراس *Protagora*) الذين هاجموا سقراط *Socrates* باستعارة أسلحته، إن جاز التعبير، وجعلها مكتملة.

وهذا ما خلق نمطاً جديداً من الأدب: وهو الأدب الخطابي. كان أنتيفون *Antiphon* الأقدم على قدم المساواة مع الخطباء الأثينيين ومع أساتذة الفصاحة. والحشد الذي تلاه هم إيزوقراط *Isocrates* وأندوسيدس *Andocides* وليسياس *Lysias* وأسخينس *Aeschines* وهيبريدس *Hyperides* وسيدهم على الإطلاق المنطيق المدهش، الخطيب المتقد والمخيف ديموستين *Demosthenes*.

الفلاسفة

أفلاطون

والفلاسفة بالتزامن مع السفسطائيين، أيضاً حصروا القضية بالجانب الأدبي، فقدموا مجداً خالداً لأتيكا. وتشرباً بروح سقراط، حتى حين لا يخلصون له، فأبدع أفلاطون *Plato* عالمُ النفس والأخلاقي والميتافيزيقي وعالمُ الاجتماع والشاعرُ المبدع في النثر والميثولوجي الجذاب والساحر، فلسفة بحيث حتى الأنظمة الفلسفية الحديثة، بغض النظر عن درجة اتفاقها أو اختلافها معه، دائماً تذكره، سواء أكانت صدىً بعيداً عنه أم تحدّته وتصارعت معه.

أرسطو - زينوفون - ثيوفراستس

أرسطو المثقف ثقافة عالية والطبيعي المتنور الملمّ أيضاً بكل ما هو معروف في أيامه، والميتافيزيقي الحصيف أكثر من أفلاطون ولكن من دون عمقه، والمنطقي الدقيق والواثق ومؤسس المنطق العلمي، والأخلاقي الواضح والمتقن والمنظر الأدبي الأصيل والصافي؛ وزينوفون *Xenophon* الذي هيمن على عشرة ألاف سنة متراجعة، والأخلاقي والمربي المثقف الذي أظهر سحراً كبيراً في كتابه **السيكلوبيديا** والأستاذ الحساس والمهذب والمستنير بالحياة العادية والعملية في كتابه **الاقتصاد**، وثيوفراستس *Theophrastus* عالم النبات والأخلاقي الهجاء الذكي، واللاذع والواقعي جداً - أولئك الثلاثة أقاموا حكمة الإغريق لقرون، والأرجح أنهم أقاموها إلى الأبد، وأشادوا معبداً صلباً وأنيقاً

حيثما بحثت الإنسانية باستمرار عن الحقائق المفيدة، وحيث تؤدي صلواتها بعض سلالاتنا على الأقل، وأولئك الأقل سطوعاً، سيؤدون دائماً صلواتهم.

المؤلفات الرئيسية لأفلاطون هي **المحاورات السقراطية** - **غورجياس** - **طيماوس** - **فيدون** (خلود النفس) – **الجمهورية** - **لقوانين**. والكتب الأساسية لأرسطو هي **التاريخ الطبيعي** - **الميتافيزياء** - **المنطق** - **الخطابة** - **الشعر** (البوطيقا). وأهم مجلدات زينوفون هي **الموسوعة** - **الاقتصاد** - **ذكريات أفلاطون**. والعمل الوحيد لثيوفراستوس *Theophrastus* الذي نملكه كتابه **الشخصيات** الذي ترجمه وتابعه لابروير *La Bruyère*.

الرواقيون والأبيقوريون

في القرن الرابع وحتى في القرن الثالث تحدثت الفلسفة إلى الفكر البشري عبر مدرستين أساسيتين: مدرسة الرواقيين ومدرسة الأبيقوريين. والممثلون الرئيسيون للرواقيين هم زينون *Zeno* وكلينثيس *Cleanthes* وكريسينوس *Chrysippus* علموا الأخلاق المتقشفة التي يمكن إيجازها بهذه الكلمات: "الزهد والتجلد". والممثلون الرئيسيون للأبيقوريين، هم أبيقور *Epicurus* وأريستيبوس *Aristippus*، وقد علما، إذا أخذنا الجميع بالحسبان، الأخلاق ذاتها ولكن ابتداء من مبدأ مختلف، وهو أن السعادة يجب البحث عنها، وتنفيذاً لهذا المبدأ نراهم أقل تشدداً، حتى في مفاهيمهم. ومع أنهما مدرستان في الفلسفة فلا بد مع ذلك من أن نحسب حسابهما هنا لأن كل منهما مارست تأثيراً كبيراً على الكتاب، المدرسة الأولى أثرت في سينيكا *Seneca* وبعد ذلك بكثير أثرت في كورنيل *Corneille*؛ والمدرسة الثانية أثرت في لوكريتيوس *Lucretius* وهوراس *Horace*؛ وقد أثرت المدرستان أحياناً في شخص واحد، ومثال ذلك مونتين *Montaigne*.

بعد الإسكندر وسعت الثقافة اليونانية نفسها وامتدادها بحيث بدلاً من أن يكون لها مركز واحد هو أثينا، صار لها خمسة أو ستة مراكز: أثينا والإسكندرية وأنطاكية وبيرغاموس وسيراكوز. كان هذا ازدهاراً أدبياً مدهشاً؛ كان الأصلاء أقل ضخامة ولكن الموهوبين كانوا لا يحصون.

في المدن التي سميناها، وفي مدن أخرى جرى تعليم التاريخ والخطابة والجغرافية والفلسفة وتاريخ الفلسفة وفقه اللغة ودرست بحماسة؛ فقد كانت التربة الأدبية خصبة تحرث باستمرار.

الأدب السكندري

من هذه التربة ظهر أدب جديد - أكثر معرفة وأقل عفوية، وأقل غنى بالقوة الشعبية، ومع ذلك مفيد جداً. هذه الأدب يعرف بـ السكندري. ومع هذا الأدب ظهرت الرومانسة *romance* أولاً، التي لم يعرفها القدماء. وقد بدأت الرومانسة التاريخية مع هيكاتايوس الأبديري *Hecataeus of Abdera*، والرومانسة الفلسفية مع إفيميروس المسيني *Evemerus of Messenia*، الذي ادعى أنه وجد مخطوطة قديمة تثبت أن آلهة اليونان القديمة كانوا ملوك الزمن القديم لبلاد قدستهم بعد موتهم، وهو ابتكار ماهر شكل في المستقبل مدرسة نقد الميثولوجيا القديمة.

الرثاء والرعويات

ثيوقريطس

الشعراء الحقيقيون، والعظماء في الوقت نفسه، ينتمون إلى هذه الفترة. أحدهم كان فيليتاس الكوسي *Philetas of Cos* مؤسس الرثاء اليوناني، الذي بعد قرون احتفى به وتأثر به أندريه شينييه *André Chénier*. من مؤلفاته لم يبق سوى قطع قليلة مقتضبة. والآخر هو أسيليبيادس الساموسي *Asclepiades of Samos* وكلاهما شاعر رثاء وغناء، ومنهما وصلت إلينا قصائد الحكمة (الإبيغرامات) *epigrams* (المراثي القصيرة) الساحرة. ومع ذلك هناك الشاعر ليونيداس التارنتيومي *Leonidas of Tarentum* الحزين والخلاب. وقائدا هذه الجوقة هما ثيوقريطس *Theocritus* وكاليماخوس *Callimachus*. ثيوقريطس الذي يمرّ باعتباره مؤسس الأنشودة الرعوية *idyll* التي لم يخترها، بل التي منحها أهمية من النمط بمهرها بطابعه. والقصيدة الرعوية لثيوقريطس دائماً صورة

للعادات الشعبية وحتى الدراما الصغيرة للأخلاق الشعبية. ولكن بعد فترة اكتسبت مشهدها من الريف، وعند آخرين من المدينة، أو من البحر وبالتالي هناك رعويات فلاحية غليظة ورعويات بحرية ورعويات الضاحية الشعبية. والإحساس المذهل بالواقع المتحد بالموهبة الشعرية الشخصية والحساسية المتيقظة جعلت قصائده الصغيرة على قدم المساواة مع الجمال لصدقها وأيضاً للفكرة المثالية للعاطفة المتوهجة والعميقة. ومن الغريب وليس المدهش أن تستوحي رعوية ثيوقريطس في أغلبها شعر التوراة.

تلاميذ ثيوقريطس

كان موسخوس *Moschus* وبيون *Bion* التلميذين المباشرين لثيوقريطس. وله شعراء مشاهير، من فرجيل *Virgil* في ديوانه **الرعويات** وحتى الكثير من شعراء رعويات النهضة في فرنسا وإيطاليا، وأيضاً رعويات الشاعر سيغريس *Segrais* من القرن السابع عشر، وانتهاء، إن رغبت، بالشاعر أندريه شينييه، مع أن آخرين أكثر حداثة يمكن تقصي ذلك عندهم.

كاليماخوس

كاليماخوس أكثر معرفة وأكثر كلاسيكية، ويمكن القول إنه ممن يعرف بالنيوكلاسيكي، الذي رغب أن يعامل بطريقة جديدة الموضوعات ذاتها التي كانت تعالج من قبل رجال كبار في اليونان القديمة، وقد فهمها إلى حد ما بالروح ذاتها. لذلك كتب التراجيديا والكوميديا والدراما الساخرة (نوع من المسرحية الهزلية *farce* التي تشخص فيها المعبودات الثانوية) والقصائد الغنائية والرثائية على طريقة ألكايوس أو سافو، والملحمة العامية والرومانسة شعراً، التي ربما كانت نمطاً روائياً، ولكن الأرجح أنها تقليد لقصائد معينة في اليونان القديمة التي لا نملكها. ويبدو لنا شعره بارداً وحسابياً، مع أنه ذكي وبارع. ولم يقدر تقديراً عالياً فقط في عصره بل استمر هذا التقدير حتى نهاية العصر القديم.

الشعر التعليمي

أراتوس - أبوللونيوس

كتب للشعر التعليمي، من الحضارة التي لا أثر لها منذ هسيود، أن ينتعش في هذه الفترة البارعة؛ والحقيقة أن أراتوس *Aratus* في هذا الزمن كتب مؤلفه **الظواهر** الذي هو أطروحة في علم الفلك والأرصاد الجوية انسجاماً مع علم عصره. والأكثر طموحاً ورغبة ليس فقط كتابة قطعة ملحمية مثل كاليماخوس بل أيضاً استعادة القصيدة الملحمية العظيمة للزمن القديم تقفياً لطريقة هومر (اشتبك هو وكاليماخوس في خصام عنيف حول الموضوع) فأبوللونيوس الروديسي *Apollonius of Rhodes* في ملحمته **الأرغونوتيكا** (بحارة الأرغو) يسرد حملة جاسون *Jason*. كانت قصيدة ملحمية جميلة بل كانت بصورة خاصة قصيدة نفسية مدهشة. فدراسة العاطفة والنصر والكارثة لتولّه ميديا تعتبر قطعة عظيمة. ولا شك أن فرجيل في شخصية **ديدو**، وربما راسين *Racine* في مسرحيته **فيدر** استفادا من أبوللونيوس.

ليكورفون

ينتمي ليكورفون *Lycophron* إلى هذه الحقبة. وقد ترك لنا قصيدة مدهشة (الكسندرا *Alexandra* أي كاسندرا *Cassandra* الطروادية) التي لم يفهمها معاصروه على الرغم من كل جهودهم. وهو رأس تلك المدرسة من الشعراء المبهمين الغامضين الذين حظوا باحترام كبير. وخير مثال لذلك الشاعر موريس سييف *Maurice Scève* في القرن السادس عشر.

الإبيغراميون

ميليغر

لا بد أن نضيف إلى هؤلاء الموهوبين العظماء شعراء الإبيغرام *epigrammatists* - أي أولئك الذين كتبوا شعراً قصيراً جداً ودقيقاً جداً وشفافاً جداً في سعيهم إلى الكمال المطلق. هناك عدد لا يحصى منهم. أشهرهم ميليغر *Meleager* الذي نقدر عبقريته اللطيفة وحساسيته المرهفة.

بوليبيوس

لو عدنا إلى المقاطعات الرومانية (بالتوالي: اليونان العظمى واليونان الصغرى ومصر وسوريا) فإن العالم اليوناني لم يقصر في أن يكون له مرافئ ثقافية مدهشة. فمنذ الحروب البونية أظهر بوليبيوس *Polybius* اليوناني أنه مؤرخ ممتاز عسكرياً وسياسياً وفلسفياً يبحث عن الحقائق ويتحرى أيضاً عن الأسباب المحتملة والدساتير والمؤسسات الاجتماعية والأخلاق والشخصية وأمزجة الأعراق الخفية. ومؤلفه الرئيسي هو **التواريخ** - أي تاريخ العالم اليوناني - الروماني من الحرب البونية الثانية حتى حصار الرومان لكورنثة. كان أستاذاً مثقفاً؛ لكنه كتب بطريقة سيئة جداً.

إبيكتيتوس - ماركوس أورليوس

لا بد أن نقر أن اليونان في القرن الأول قبل المسيح وفي القرن الذي بعده - حتى ثقافياً - كانت في حالة من الانكماش. ولكن من الإمبراطور نيرفا *Nerva* - أي من بداية القرن الثاني - كان هناك إحياء هيليني. كانت في المقام الأول أعظم لحظة منذ أفلاطون في الفلسفة اليونانية. فقد تابعت الرواقية اكتساحها الكامل للطبقات المثقفة؛ فقدم أبيكتيوس *Epictetus* كتابيه **الكراسة وكتاب التعليمات** حيث كثف الأفكار الراقية والعميقة الأكثر قرباً من مبدأ زينون *Zeno* فيما بعدن يرسم الإمبراطور ماركوس أورليوس *Marcus Aurelius* في تأملاته المنفردة بعنوان **إلى نفسي روحه المحترمة** والعفيفة والنقية المتشددة مع ذاته المتسامحة مع الآخرين، مستسلماً بصورة شجية لنظام الأشياء الكوني ومتمسكاً بها بتسامح وإيمان أنها دينية فعلاً. والأقل حدة، بل حتى الممراح المبتسم ديون كريستوستوم *Dion Chrysostom* (أي فم الذهب، وهو اسم مستعار أطلق عليه لفصاحته) تابع بالروح ذاتها مع قليل من الأفلاطونية مما جعله أكثر سهولة من الرواقيين المفرطين في الزهد والنقاء.

بلوتارك

بلوتارك *Plutarch* كمؤرخ معتدل الرومانتيكية، وكعالم أخلاق بارع، وعنيد في المصالحة والتعاون يسرد في القسم الأكبر من مؤلفه **مقارنة سير المشاهير***Parallel Lives* مشاهير الرومان واليونان ليظهر كيف أنهم كانوا ممتازين وأن من الواجب أن يقدر واحدهم الآخر، وفي مكان آخر من مؤلفاته الأخلاقية يسعى إلى مصالحة الفلسفة مع الوثنية، ولا شك أنه يؤمن بإله مفرد، كأفلاطون، ولكنه يؤمن أيضاً بحشد من الأرواح الوسيطة بين الله والإنسان، التي سمحت له في اعتبار المعبودات الوثنية كائنات أسيء فهمها وهو يعجب إلى حد ما بسلطتها. ولا شك لرجل حافظ على الاعتدال، أن يعارض الرواقيين لكونهم قساة جداً على الطبيعة البشرية ويعارض الأبيقوريين لكونهم متساهلين جداً أو لأنهم يغامرون بالمستقبل. كان كاتباً مرهفاً - كريماً مسيطراً على سلطان نفسه؛ وهو الأقرب، في القول والعمل، من المذهب الانتقائي *eclecticism* من مذهب البساطة، ويجب ألا نحكم عليه بخفة الدم التي عزاها إليه مترجمه أميوت *Amyot*. وفي كل أوروبا، ومنذ عصر النهضة، من بين كل المؤلفين الإغريق ربما كان الأكثر قراءة والأكثر اقتباساً والأحب، والأعظم نشراً.

المؤرخون الإغريق

كثر المؤرخون الإغريق في هذه الحقبة. نشير فقط إلى الأشهر بينهم: فأريان *Arrian* فيلسوف وتلميذ إبيكتاتوس ومؤرخ حملة الإسكندر؛ وأبيان *Appian* الذي كتب **تاريخ الشعب الروماني** منذ نشأته حتى عصر تروجان *Trajan*؛ وديون كاسيوس *Dion Cassius*، الذي جمع تاريخ الرومان بطريقة متواصلة مليئة بالأناقة والنبل؛ وهيروديان *Herodian* مؤرخ خلفاء ماركوس أورليوس *Marcus Aurelius* الذي سرد فقط ما شاهده بنفسه، وهو كاتب رائع يبدو واسع الثقافة وقليل التصنع.

والمؤرخ صاحب الشخصية الفردية العليا هو ديوجينس لايرتيوس *Diogenes of Laertius* الذي كتب **حياة الفلاسفة**، وكان فيلسوفاً شديد الصغر يميل إلى السقوط في الثرثرة، ولكنها ثرثرة مفيدة وقيمة عندنا بسبب المعلومات الهزيلة التي نملكها عن الفلسفة القديمة.

لوقيانوس

لوقيانوس الساموسطي *Lucian of Samosata* (سورية) هو الأعظم من بين كل من استشهدنا بهم منذ بلوتارك، فربما اعتبر فولتير العصر القديم - ذكي ومتشكك وممتع بل إنه ساخر أيضاً. كان في الأساس محاضراً يتجوّل كسفسطائي من مدينة إلى مدينة، متكلماً بطريقة حيوية ونشيطة وعميقة ومتناقضة. كما كان كاتباً متعدداً، يكتب الأطروحات والهجائيات والمجلدات عن معظم الموضوعات الخلافية. كتب ضد المسيحيين والوثنيين والفلاسفة والمتعصبين، وأحياناً ضد الرأي العام. ومن بين مؤلفاته **طريقة كتابة التاريخ**، بعضه جاد وبعضه ساخر؛ و**محاورة الموتى** الوعظي والساخر، والذي قلده فيما بعد بطريقة فائقة فونتينيل *Fontenelle*؛ و**محاورة الآلهة** وهو كتاب ضد الميثولوجيا؛ و**التاريخ الحقيقي**، وهو تقليد ساخر للمؤرخين الزائفين والرومانتيكيين كما ظهروا في ذلك الوقت، وبالأخص حول تاريخ الإسكندر. إنه ولا شك قليل العمق، ولكن موهوب بصورة لا تصدق: حذر ولاذع ومنطقي ممتع بجدلية ساخرة وغريزة مدهشة في الكاريكاتير وفن المحاورة الطبيعية والغطرسة المحببة واختراق نفسي خفيف وحيوي وإحساس عميق بالمضحك والحماقة المرحة؛ وقبل كل شيء كان أساس هجائه أن يتمتع هو بما يكتب عن طريق إمتاع الآخرين، كل هذا امتلكه بدرجة عالية. وإذا دعي رابليه *Rabelais* المضحك الهوميري فلا شك أن لوقيانوس يدعى المضحك السقراطي.

الشعر والرومانسة

لم يعد الشعر اليوناني موجوداً في هذه الحقبة. فلا يكاد يسمح بالاقتباس من الشاعر التعليمي أوبيان *Oppian* وقصيدته عن الخطيئة، ومن كاتب القصة الحكائية بابريوس *Babrius* مقلد إيسوب في أقاصيصه. وللتعويض عن هذا النقص كان من الهام ولادة الرومانسة *romance* والأدب العلمي. وممن يذكر من كتاب الرومانسة وممثليها أنطونيوس ديوجينس *Antonius Diogenes* في رومانسته **معجزات خلف بلاد ثول** *Thule* وهليودوروس *Heliodorus* في كتابه **الأثيوبية** أو **ثياجنس وشاريكليا** *Theagenes and Chariclea* وهي قصة حب أعجب بها كثيراً راسين في صباه؛ ولونغوس *Longus* في كتابه عن العاشقين الرعويين **دافنيس وكلو** *Daphnis and Chloe* وهي قصة لا تزال تلقى استحساناً عاماً والتي تمتلك الحس الواقعي، وإن كان فيها بعض الزخرف المصنع، والتي أمكن أن يرتفع أسلوبها فوق الأسلوب العادي.

الأدب العلمي

يتضمن الأدب العلمي الرياضي وعالم الفلك صاحب الشهرة الواسعة بطليموس *Ptolemy* الذي حظي نظامه باحترام وظل الإيمان به حتى مجيء كوبرنيكوس *Copernicus*؛ والفيزيائي غالين *Galen* والفيزيائي الفيلسوف سيكتوس أمبيريكوس *Sextus Empiricus* الذي كان مؤرخاً جيداً ومتشككاً كبيراً، ولكنه جيد المعلومات والثقافة في الأفكار الفلسفية.

انحطاط الروح اليونانية

بالتدريج انسحبت من العالم اليوناني روحه، وإن لم يكن من دون بقايا وما يشبه النهضة المفيدة. ففي القرن الرابع ترك السفسطائي - أي أستاذ الفلسفة والخطابة - ليبانيوس *Libanius* عدداً ضخماً من الخطابات الرسمية أو الأكاديمية ورسائل كانت أطروحات علمية. وكان مثل صديقه الإمبراطور

يوليان *Julian* وثنياً واثقاً، وباعتدال ولكن بروح ثابتة هاجم المطارنة والخوارنة المسيحيين وبالأخص الرهبان، الذين كانوا موضوعات رفض حقيقية له. موهبته من الدرجة الثانية ولكنها من الصنف النبيل.

الإمبراطور يوليان

كان الإمبراطور يوليان، المسيحي في طفولته، والمتحوّل في رجولته إلى الوثنية، التي أكسبته لقب "المرتد"، مثقفاً كبيراً نقي القلب، ممتلئاً بروح التسامح؛ ولكنه كان وثنياً وكتب ضد المسيحية. يمتلك قوة ساخرة وفطنة، بل يمتلك درجة من الفصاحة. له كتاب بعنوان مبغض اللحية *Misopogon* موجه ضد سكان أنطاكية، الذين سخروا من لحيته، فخلق قراءة مسلية. توفي في أوج شبابه؛ وهو بكل المقاييس كان سيصبح رجلاً عظيماً جداً.

بروكوبيوس

من الضروري التقدم إلى القرن السادس حتى نشير إلى المؤرخ بروكوبيوس *Procopius* ذلك المؤرخ المزدوج الذي في تواريخه الرسمية كان يستغرق إعجاباً بـ جستنيان *Justinian*، والذي في كتابه **التاريخ السري** المنشور بعد وفاته، سرد لنا الفساد الخلقي، الحقيقي أو المتخيّل لتيودورا *Theodora* زوجة الإمبراطور جستنيان، وأنتطونينا *Antonina* زوجة بيليساريوس *Belisarius*.

الشعر

الشعر اليوناني لم يمت. كوينتوس السميرني *Quintus of Smyrna* الذي عاش في القرن الرابع، وربما بعد ذلك، كتب **تتمة هومر** من دون خيال واسع، ولكن بمهارة وألمعية؛ وكتب نونوس *Nonnus* **الديونيسية** *Dionysiaca* وهو تاريخ شعري لحملة باخوس *Bacchus* إلى الهند وهو كتاب خطابي غزير وقوي ومليء بالتالي بالأخطاء والموهبة على حد سواء؛ وموسايوس *Musaeus* (لا يعرف له تاريخ على الإطلاق) ظل مشهورا لقصيدته الشهيرة الممتعة **هيرو وليندر**، التي ترجمت مرات لا تحصى نثراً وشعراً.

الكتاب الإغريق المسيحيون

من الضروري أن ننتقل إلى القرن الخامس لنعدد الكتاب الإغريق المسيحيين. وكما هو متوقع فإنهم جميعاً خطباء يثيرون الجدل. فالقديس أثناسيوس السكندري *Athanasius of Alexandria* كان رجلَ عمل مدهشاً، وكان خطيباً متحمساً ملتهباً، والمؤرخ الجدلي الأكبر للكنيسة بعد طريقة بوسويه *Bossuet* في كتابه **تاريخ التغيرات**. والقديس باسيل *Basil* الذي يلقبه المعجبون به "الكبير" من دون مبالغة في الصفة، كان خطيباً لا نظير له. وقد سيطر، إن جاز القول، على المسيحية الشرقية، بفضل كلامه ومهارته وشجاعته. وحتى بالنسبة إلينا فإن مؤلفاته تمتلك سحراً. فقد خلط أجمل أفكار أفلاطون مع الكنيسة في أعظم طريقة أرثوذكسية جذلة. وقد قدّره إنسانيو النهضة لنظرته العادلة إلى العصر القديم في كتابه **محاضرة في المؤلفين الوثنيين** ونصح المسيحيين أن يدرسوا العصر القديم بحصافة وتقدير. والقديس غريغوري النازيانزيني *Gregory of Nazianzen* الصديق الحميم للقديس باسيل، كان أيضاً خطيباً عظيماً، مكرماً ومتحمساً وغنائياً بينما كان أيضاً شاعراً صافياً ولطيفاً مليئاً بالسحر. والقديس غريغوري النيساوي *Gregory of Nyssa* شقيق القديس باسيل، كان في الأساس لاهوتياً وفي أيامه كان ذا سلطة لاهوتية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أعظم شخصية في الكنيسة اليونانية هو القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي برز في التاريخ السياسي لصراعه مع الإمبراطور أركاديوس *Arcadius* والإمبراطورة يودوكسيا *Eudoxia*، وللاضطهاد الذي بالنتيجة كابده. إنه متحمس ملتهب وفصيح عنيف، وكان مدافعاً عن الشعب، ولا يزال يؤثر فينا لأننا نشعر عميقاً بأنه مدافع بكل حماسة ورغبة عن العدالة والعفة والمحبة. وكان أخلاقياً مقاتلاً مثل بوردالو *Bourdaloue* وكان واقعياً ولذلك هو وصاف دقيق ورسام لعادات عصره، التي لم تكن صالحة؛ فيطلعنا أفضل من أي شخص

آخر كيف كانت الحالة الحزينة للأخلاق الشرقية في أيامه. وعبقريته المتنوعة مروراً من أعظم الأمزجة العادية الروحية حتى أعلى فصاحة مؤثرة ومهيبة، جعلته واحداً من أعظم جميع القدامى.

يوسيبيوس

لا بد من أن نشير إلى المؤرخ الطيب يوسيبيوس *Eusebius* الذي سرد تاريخ المسيحية من نشأتها حتى عام 323.

الحقبة البيزنطية

ما يسمى الحقبة البيزنطية تمتد من نهاية حكم جستنيان حتى سقوط الإمبراطورية الشرقية (565 - 1453). هذه الحقبة الطويلة تقابل عملياً العصور الوسطى في الغرب، ضعيفة جداً من الناحية الأدبية، ولكنها تمتلك عدداً من المؤخرين الهامين والقيمين (يوسف البيزنطي *Joseph of Byzantium* وكومنينوس *Comnenus* الخ) وعدداً من النحويين المثقفين، أي كانوا أساتذة لغة وأدب (يوستاتيوس *Eustathius* وسيفالون *Cephalon* وبلانودس *Planudes* ولاسكاريس *Lascaris*). وكان آخر هؤلاء النحويين، ومن بينهم لاسكاريس، الذين بعد سقوط القسطنطينية، هم المرحب بهم في فرنسا وإيطاليا، قد جلبوا الكتاب الإغريق إلى الغرب، وبالتعليق عليهم صاروا مشهورين، ومن هنا جاءت نهضة الأدب.

الفصل الرابع

اللاتين

الأدب اللاتيني

الأدب اللاتيني ليس أكثر من فرع للأدب اليوناني. بدأ متأخراً، وانتهى مبكراً، وصبّ في الآخرين جزءاً من قوته الحية على الأقل. فالأدب الروماني يبدأ فعلاً فقط في اللحظة التي صار الرومان على صلة بالإغريق، فقرؤوا كتبهم، وأولعوا بتقليدهم؛ إنه يبدأ، إن جاز القول، في القرن الثالث قبل المسيح. وأول تجلٍ لهذا الأدب كان الملحمة. نيفيوس *Naevius* وليفيوس *Livius* وأندرونيكوس *Andronicus*. كانوا خالين من العبقرية. وتفرد منهم إنيوس *Ennius*: فهو يمتلك ميزة؛ وما اقتبسه اللاتين من كتابه **الحوليات** مشهور، أولاً بسبب العاطفة الشعرية الفياضة التي تقدم المتعة؛ ثم امتلاك الطاقة والعواطف حتى درجة الإبداع. يضاف إلى ذلك أن إنيوس كتب عدة قصائد تعليمية وهجائية. وإنيوس من بين الرومان كان الجد الأكبر والأب الأعظم للأدب اللاتيني.

لوسيليوس

كان لوسيليوس *Lucilius* هجاءً. ومن قطع كتابه التي وصلت إلينا، نتبيّن أنه كان ساخراً سياسياً حاداً جداً ونفاذاً. وبالرغم من كل ازدراء هوراس *Horace* بكل من سبقوا قرنه، لم يحجم عن تقديره والموافقة أن هناك شيئاً يمكن أخذه وتثمينه من هذا "السيل الطيني".

الكوميديا : بلاوتوس وتيرنس

وجدت الكوميديا والتراجيديا في هذه الحقبة. وربما من المناسب هنا أن نستخلص أنه فيما بعد وفي الحقبة الأفضل للأدب اللاتيني توقفتا عن الوجود. فأدرك بلاوتوس *Plautus* خطة نقل الكوميديات الإغريقية إلى روما في زمن الكوميديا الجديدة وتأقلمها مع الأخلاق اللاتينية إلى حد ما. كانت لديه حيوية نشيطة لا تنقصها القوة، وأكثر من مرة أكرمه موليير *Molière* فاستوحى منه واستلهمه. أما بعده فجاء تيرنس *Terence* صديق سيبيو أفريكانوس الثاني *Scipio the second Africanus* وربما بالتعاون معه، بطريقة مختلفة عن بلاوتوس إلى درجة نمط من الموهبة واللطف والرقة والرومانتيكية والعاطفية، التي تقدم الابتسام أكثر مما تقدم الفطنة، إلى حد القول إنه مستلهمة من مينادر مباشرة، فكتب كوميديات قابلة للقراءة ولكن يشك إن كان اعتلت خشبة المسرح. على أي حال قدره الكتاب الرومان تقيراً عظيماً، وفي مرحلة من مراحل تاريخنا، في القرن السابع عشر، تمتع بتقدير بارز وإجماعي.

الأتيلية

إلى جانب الكوميديا المحددة بدقة، سواء عالجت الرومان أو اليونان، أضاف الرومان الأتيلية *atellane* التي جاءتهم من الأتروسكانيين (أتيلا *Atella* هي مدينة في أتروريا *Etruria*) والتي كانت نوعاً من المهزلة *farce* بشخصيات مضخمة (الشره السمين والشره النحيل والبخيل العجوز الدائم الارتباك الخ). حاول بومبونيوس *Pomponius* ونيفيوس *Naevius* الارتفاع بهذا الاستجمام الشعبي إلى المستوى الأدبي ونجحا. وقد غدت ذات سمة وطنية عميقة. كان هناك تماثل كبير بينها وبين الكوميديا الإيطالية الشعبية الحديثة، فعرضت شخصياتها كاسندرا *Cassandra* وبنتالون *Pantaloon* وهارليكان *Harlequin*، من دون الجزم أن الكوميديا الإيطالية انطلقت من الأتيلية. وتمتعت الأتيلية بنجاح كبير في القرن الثاني قبل المسيح. على أي حال حلت محلها الإيمائية، التي كانت

مهزلة من الأخلاق الشعبية، وبالأخص الطبقات الدنيا؛ كانت تصويراً لحثالة المجتمع في مظاهرهم الساخرة. وقد حافظت على تسلطها حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية من دون أن تصبح جليلة أو تتغير. بعض مؤلفي الإيمائية استمروا: بوبليوس سيروس *Publius Syrus* ولا بيريوس *Laberius* في زمن القيصر. والغريب أن تلك المسرحيات الإيمائية، الفاحشة بل حتى الداعرة، قدمت دائماً مدخلاً لملاحظات حفظها لنا النحويون اللاتين. هذا الخليط الغريب قد يفسر بالمتعة؛ ربما كان مجرد عادة مألوفة.

التراجيديا

أما إذا كان هناك تراجيديا، فقد عاشت أقل من الكوميديا، ولكن كانت رائعة جداً وللأسف لم يبق منها شيء لنا. فليفيوس أندرونيكوس *Livius Andronicus* وناسفيوس *Nasvius* كتبا تراجيديات، ولكن التراجيديين الثلاثة الأعظم هم إنيوس *Ennius* وابن أخيه باكوفيوس *Pacuvius* وأتيوس *Attius*. إنيوس قلد يوريبيدس وباكوفيوس قلد سوفوكليس وأتيوس قلد أسخيلوس. وارتفع الثلاثة إلى مرتبة العظيم والجليل والرائع؛ وبدا أنهم جماعون ومشبعون جداً بالأمثال؛ ولكن من الضروري توخي الحذر: فهؤلاء المؤلفون عرفناهم فقط عن طريق الاقتباسات التي قدمها النحويون، والنحويون الذين يقتبسون بصورة طبيعية الجمل أكثر من قطع الحوار، يجعلون من الممكن أن يظهر أولئك المؤلفون لنا جمّاعي أمثلة بينما يكونون في الواقع غير ذلك.

الأدب النثري

ظهر الأدب النثري في روما تقريباً في زمن ظهور الأدب الشعري. فشيشرون *Cicero* يقدم لنا أسماء كبارِ الخطباء، المعاصرين لإنيوس وكان هناك مؤرخون وتعليميون في نثر تلك الفترة. فكاتو *Cato* الأكبر، المراقب الكبير، كان مؤرخاً؛ كتب مؤلفاً بعنوان **الأرومات** *Origins*، الذي يبدو أنه ليس تاريخ روما فقط بل أيضاً تاريخ كل إيطاليا منذ تأسيس روما؛ وكتب **في الحياة الريفية**

الذي وصل إلينا وهو قيّم باعتباره يعرض البساطة والقسوة وبخل المزايا الرومانية القديمة، وكل الصفات التي عرف كاتو معرفة عميقة أنهم يمتلكونها.

عصر قيصر

كان عصر قيصر مرحلة أدبية عظيمة. قبل كل شيء كان القيصر نفسه: خطيباً عظيماً وكاتب رسائل ونحوياً ومؤرّخاً. تسجيلاته أي مذكراته وتاريخ حملاته مدهشة في وعيها ودقتها في السرد السريع والمتدفق. وانفراداً عنه قدم كارنيليوس نيبوس *Cornelius Nepos* موجزاً واضحاً جداً، ويتسم بالرزانة والتاريخ الشمولي تحت عنوان **كرونيكا**. وكتب فارو *Varro*، الموسوعي **في الحياة الريفية** أيضاً وهو عمل حول اللغة اللاتينية، وكتب **الهجائيات المينيبية** *Menippic Satires* - هجائيات حقاً ولكنها خليط من النثر والشعر - وكتب مجلداً بعنوان **الحياة الرومانية** وكذلك مجموعة من الكتب الصغيرة التي تعالج كل موضوع يخطر على بال. أخبره شيشرون "علمتنا كل شيء إنساني وإلهي". امتلك ثقافة ضخمة وعقلاً عنيفاً لا يخلو من سحر. ويمكن تصوره حكيماً من حكماء قرننا السادس عشر.

شيشرون

ربما كان شيشرون رجل الأدب الأعظم. ومن الواضح أن جميع الأذواق كانت في نفسه في الوقت ذاته، كما قال عنه فولتير، وقد تمتع بها كلها. فكان سياسياً ومحامياً وخطيباً وشاعراً وفيلسوفاً وأستاذ بلاغة وأخلاقياً ونحوياً وكاتباً سياسياً، ومراسلاً؛ وقد أحاط بكل المعرفة البشرية، فورط نفسه في كل القضايا البشرية فكان كاتباً عظيماً جداً. وأعظم ما يهمنا في حصيلته الكثيفة اليوم هي مناقشاته السياسية ورسائله وأطروحاته الأخلاقية. ومناقشاته السياسية هي مناقاشات رجل شريف دائماً يمسك بالآراء الصحيحة ويتعاطف مع الفوائد الكبرى لبلاده؛ ورسائله هي رسائل رجل فطن وصديق ممتاز؛ وأطروحاته الأخلاقية وبخاصة ما جاء منها في كتابه **الواجبات** هي ذات روح عالية تخص

كل الواجبات الإنسانية الأخرى التي يجب أن تكون ملتزمة بمصلحة بلاد المرء. لم يرتفع دائماً إلى الظروف؛ على العكس، كان مقتنعاً جداً أنها ستخدمه.

سالوست

سالوست *Sallust* الذي يبدو خسيساً كفرد، كان المؤرخ الأكثر حكمة وامتيازاً. ترك لنا تاريخاً عن كاتالين *Catiline* وآخر عن جوغورتا *Jugurtha*. إنهما قطعتان ممتازتان من الوضوح والحيوية الدرامية. وما يعجبنا هو هذا المزيج الذي تبدو فيه أفكار جيدة كما عند لاروشفوكولد: "الصداقة رغبة في الأشياء ذاتها وكراهية الأشياء ذاتها"؛ "روح الزمرة هي صداقة الأنذال".

الشعر

كاتولوس

لم يكن الشعر أقل تألقاً من النثر في زمن قيصر. كان عصر لوكريتيوس *Lucretius* وكاتولوس *Catullus*. كاتولوس رجل ممتع للعالم، شهواني ساحر، وعاشق عاطفي وفصيح، وكاتب كبير للقصائد القصيرة، وقليل التشرب بالنزعة السكندرية (ولكن من النادر، لأن هذه السمة كان مبالغاً فيها كثيراً) يكاد يكون شاعراً كبيراً. في كثير من المجالات يذكرنا بأندريه شينييه، الذي يمكن أن نضيف أنه كان مطلعاً على كتابته.

لوكريتيوس

لوكريتيوس شاعر نبيل جداً. إذا عرفنا أبيقور بطريقة أخرى لا تعتمد على الشذرات من أقواله، فمن الأرجح أن يغرينا ذلك بالتأكيد أن لوكريتيوس ليس أكثر من مترجم، ولكن لا نستطيع أن نعلن ذلك، فمن القسم التعليمي لقصيدة لوكريتيوس **في الطبيعة** حتى لو كانت ترجمة بسيطة، فإن الأجزاء الخطابية والوصفية سوف تبقى، وهي الأجمل في قصيدته. في استلهامه لأبيقور وفي

تشخيصه الطبيعة بإنسان، دعوة للاستسلام للموت، وفي وصفه التضحية بإفيجينيا *Iphigenia* والبقرة الهائمة في الحقول بحثاً عن ابنتها الضائعة هناك اتساع وإدراك وعظمة ملحمية، تذكرنا بهومر، وبأفكار دانتي *Dante* المثيرة، والتي فرجيل نفسه لم يصل إليها، وإن كان التفاوت قليلاً فإنه ليس أعظم منه.

العصر الأوغسطيني

العصر الأوغسطيني، الذي كان عظيماً حقاً فقط لو تحت هذا العنوان شملنا أيضاً مرحلة القيصر وكذلك مرحلة أوكتافيوس *Octavius* وهكذا فهمه أجدادنا، لم يفشل في تقديم كتاب من عبقرية رفيعة. فهناك فرجيل وهوراس *Horace* وتيتوس ـ ليفي *Titus-Livy*.

تيتوس ـ ليفي

تيتوس ـ ليفي وهو واحد من أنقى وأجمل الكتاب وخطيب بموهبة جذابة في حد ذاته، كتب التاريخ الروماني المركب في جزئه الأول من ليجندات انتقلت إلى روما من جيل إلى جيل، ويستحيل لنا فيها أن نميز الزائف من الصحيح؛ فثلاثة أرباع الكتاب أبحاث دقيقة جداً لكل المؤرخين السابقين ومؤرخي حوليات الأخبار التي يمكن أن تقدم لمؤلف. وكما لاحظنا من قبل، فإن تيتوس - ليفي لكونه من جنوب الألب، كان من مقاطعة الغال التي نجد فيها الصفات الفرنسية: نظام ووضوح وتطوير متسق، وأسلوب بارع دقيق، وذوق خطابي. وعلى الرغم من أنه وطني متحمس وجمهوري الروح، فقد عامله أغسطس بطريقة ودودة، فكتب تاريخ روما ليجعله معروفاً أولاً، ولكن قبل كل شيء حتى يلهم الرومان في زمنه الإعجاب والاحترام والحب للأخلاق الصارمة والفضائل الممجدة عند أجدادهم. لقد شاد صرحاً قسم منه دمّر بكل تعاسة، ولكن في داخله استغله التراجيديون ولم يحتقره الخطباء عندما يرغبون في بناء أنفسهم خدمة لفنهم.

فرجيل

فرجيل جاء تقريباً من البلاد ذاتها. نفسه ساحرة وودودة ولطيفة، قادر قدرة مطلقة على الصداقة، نقي جداً وناصع كما قال عنه هوراس، مع ميل إلى الكآبة. هناك مصدران لإلهامه هما هومر وحب روما؛ يضاف إليهما في بعض الأحيان ثيوقريطس. عاشق لبلاده عاش حياة أخلاقية، فكتب أولاً **القصائد الرعوية** *Bucolics* ولم يغامر في أن يكون واقعياً كالشاعر الصقلي، وليس فيه تلك النعمة المطلقة والحساسية الرقيقة فقط، بل أيضاً في بعض الأشعار هناك أوصاف مدهشة تذكرنا بتلك التي عند لافونتين *La Fontaine*. عاشق للتربة واللهفة، وانسجاماً مع أغسطس في استهواء الإيطاليين إلى حب الزراعة. كتب **القصائد الزراعية** *Georgics*: أي حراثة الحقول، فتصف تلك الأعمال بدقة فريدة؛ وحتى يقدم للقارئ تنوعاً، كان ينتج من حين إلى حين موضوعاً هو جزء من تاريخ أو من ليجندة ميثولوجية. أخيراً برغبة جارفة لإضفاء أعظم ماض مجيد ممكن على روما، أحيا الليجندة القديمة التي زعمت أن ملوك روما القدامى ينحدرون من ملوك طروادة المشهورين في عزّ مجدهم، فألف **الإنياذة** *Aeneid*. والإنياذة جمع بين **الأوديسة** و**الإلياذة**. فالفصول الخمسة الأولى تتضمن مغامرة إينياس *Aeneas* بعد سقوط طروادة حتى وصوله إلى إيطاليا مأخوذة من **الأوديسة**؛ والفصول الستة الأخيرة تتضمن معارك إينياس في إيطاليا لاحتلال مكان لنفسه، مأخوذة من **الإلياذة**. في الوسط، الفصل السادس رحلة إلى الجحيم، أيضاً تقليد لهومر، ومع ذلك فإنها رحلة جديدة أغناها بكثير من الأفكار الفلسفية التي لم يستطع هومر أن يعرفها أبداً والموضوع الرئيسي للقصيدة والذي يضفي عليها وحدتها هو روما التي لم توجد بعد، ولكن التي دائماً يجري تخيلها وهي تظهر في المستقبل. كل القصيدة تسير في ذاك الاتجاه، وعلى قدم المساواة مع حيله البارعة ونبوءاته الدقيقة، ووصفه درع إينياس، تابع التاريخ الروماني نفسه بخطوطه العريضة.

الميزة التي يتفرد بها فرجيل كامنة في حسه الفني. آخرون أكثر قوة أو أكثر عمقاً. لم يكتب إنسان شعراً أفضل مما فعل هو حول أي موضوع كتب فيه.

هوراس

كان هوراس رجلاً ذا فطنة كبيرة ومطلعاً بعمق على الشعراء الإغريق. وبتلك المعرفة للشعراء امتلأت أناشيده باستدعاءات ألكاسوس *Alcasus* وستيسيكورس *Stesichorus*؛ وهي دقيقة ومصقولة، عوّدت الرومان أن يجدوا في الكلمات اللاتينية الجمل الموسيقية للإغريق، ولكن مع ذلك ظلت باردة. وبفطنته وحيويته وحس المرح الذي فيه وفلسفته الأخلاقية البسيطة التي استعار أقلها من الرواقيين وأكثرها من الأبيقوريين، فأبدع كتابيه **الهجائيات** و**الرسائل** اللذين يشكلان وليمة لطيفة وليست فائدتهما أقل من فائدة مونتين. إننا هنا أمام رجل ساحر. لم يكن شاعراً عظيماً. كان من أعظم الشعراء ذكاء، فهو شاعر أصحاب الذكاء.

تيبولوس - بوبيرتيوس - أوفيد

يأتي بعده تيبولوس *Tibullus* وبوبيرتيوس *Propertius* وأوفيد *Ovid*. كان تيبولوس رثائياً لطيفاً وحزيناً، أقل عاطفة وأقل قوة من كاتولوس، ولكنه رقيق ومؤثر. كل شعراء الرثاء، وأندريه شينييه بشكل خاص، استقوا منه بصورة واضحة. وامتلك بروبيرتيوس موهبة عظيمة في نظم الشعر، إلا أن معرفته كانت أكثر من إلهامه؛ ولكونه اسكندرياً صافياً، فقد كان أكثر اهتماماً بالمرح من الإنسان العادي. وأوفيد، الموهوب بالبراعة والماهر في النظم المدهش، وصاف مبدع في كتابه **التحوّلات** *Metamorphoses* وعبقري وبارد في كتابه **فن الهوى**، وقد أسس بعض الملاحظات العاطفية في رثائياته عندما كان منفياً فبكى سوء طالعه.

الانحطاط

مع القرن الثاني بدأ الانحطاط. فالبلاغيون، الذين كانوا في روما ما كانه السفسطائيون في أثينا، صاروا أقل ثقافة يتجهون إلى عقل العامة. فلم يتلفوا

ثقافتهم بالكامل، ولكن لم يمنحوها قوة، وبدا أن اللاتين، وقد ظنوا أنهم وصلوا ذروة الإغريق، أقل استلهاماً للنماذج الخالدة.

كوينتوس كورتيوس

على أي حال ظل النسغ اللاتيني قوياً. إن كوينتوس كورتيوس *Quintus Curtius*، المؤرخ الرومانتيكي، الذي كتب تاريخ الإسكندرية كان سخياً تجاه الخرافات، يسرد بروعة وينثر بين صفحاته بأمثال قوية وأقوال مأثورة. إنه مؤلف بارز. أما بليني *Pliny* الأكبر، الحكيم البارع والكاتب اللامع إلى حد ما، فيستحق أن يكون خليفة فارو.

سينيكا

سينيكا، الذي كان بالتأكيد ربيب الفلسفة اليونانية، دعا إلى الرواقية بأساليب موجزة ومتناقضة وساخرة، كل ذلك من خلال نقاط فكرية تمتاز أحياناً بالقوة.

بترونيوس - لوقيان - مارتيال

بترونيوس *Petronius* رجل يمتلك ذوقاً رفيعاً صافياً رسم الأخلاق القبيحة بإفراط. وسعت التراجيديا أن تحصل على نهضة مع التراجيدي سينيكا، الذي كان في الوقت نفسه الأخلاقي سينيكا، الذي ألمحنا إليه أعلاه، فكان الجهد رائعاً لتراجيديينا في القرن السادس عشر، وحتى راسين في مسرحيته **فيدر** يتبعه بصورة عامة. بيرسيوس *Perseus* تلميذ هوراس بمقدار ما تشير إلى ذلك هجائياته، كان دقيقاً إلى درجة الغموض، ولكن أظهر قوة وقسوة إلى حد الإثارة القوية. ولوقيان *Lucian* الذي أفسدت ذوقه الخطابة إلى حد ما، شاعر عميق حقاً، وبخاصة كخطيب شاعري، وفي هذا الميدان يستحق الإعجاب. سيليوس إيتاليكوس *Silius Italicus* وفاليريوس فلاكوس *Valerius Flaccus* وستاتيوس *Statius* تحولوا إلى مدرسة فرجيل ودللوا على موهبة نظم الشعر. مارتيال *Martial* صاحب المقطوعات الصغيرة، كان فطناً جداً.

جوفينال

جوفينال *Juvenal* الذي استلهم هجاءه من الجماهير، يعتبر أمير الهجائيات في كل زمن. يمتلك عاطفة الاستقامة والروح الواسعة الخطابية، وقوة لا توصف في التلاوين، وموهبة في النظم صبت في مرصعات وكذلك موهبة في الجهارة القوية الرنانة. فكتور هيغو *Victor Hugo*، في القسم الهجائي من عمله، لم يستوح منه فقط بل بدا أنه مشبع به.

عصر تراجان

وصلنا إلى عصر تراجان *Trajan*. وعلمنا كوينتيليان *Quintilian* بطريقة أنيقة أو بالأحرى بتلاوين مؤثرة، البلاغة الممتازة المليئة بالحس والذوق. بليني الأصغر *Pliny the Younger* اللطيف والمستهتر، شريف ومرح، توسل كخطيب متملق، وتحت ذريعة **الرسائل** إلى أصدقائه كتب مقالات عن أخلاق الحب التي أثارت تداعيات مونتين.

تاسيتوس

تاسيتوس *Tacitus* مؤرخ نفسي وأخلاقي عظيم. إنه، كما لاحظ راسين "أعظم رسام في العصور القديمة" وعنى راسين أنه أعظم رسام للوحات. إنه يمتلك أسلوباً جديداً كل الجدة لإبداعه: منفعل وواضح ومنوع ودقيق، مع استعارات موجزة لا تكشف عن شاعر فقط، بل أيضاً عن شاعر عظيم، في مزاج المؤرخ ميشليه *Michelet*، ولكن مع فارق التفريغ المتدفق للقوة.

أولوس جيليوس - أبوليوس

في ظل ماركوس أورليوس وقع الأدب اللاتيني في الانحطاط. كان أولوس جيليوس *Aulus Gellius* الوحيد البعيد عن التفاهة أو على الأقل ليس باحثاً غير متشدد في التقيد بالطرائق الذي يكتب بضعف؛ وكان أبوليوس *Apuleius* بكتابه **الحمار الذهبي** مجرد رومانتيكي خيالي معقد غريب في كل شيء،

وبالأخص فيما يعني التفرد، حيوي وممتع وصوفي في الوقت نفسه؛ باختصار إنه يتميز بالإرتباك.

كتاب العصر المسيحي

كان العصر المسيحي بالغ الرشد. فهناك كتاب على جانب من الأهمية وبعضهم كان عظيماً حقاً؛ فهناك ترتوليان *Tertullian* الحيوي والعنيف، الذي أحبه بوسويه؛ والقديس كبريان *Cyprian*، المليء بالحماسة واللطف والمحبة؛ ولكتانيوس *Lactantius* الفيلسوف المسيحي الماهر، الأصيل الذي يمتلك ذكاء ممتعاً؛ والقديس هيلاريوس *Hilarius* المجادل العنيد المتهور الصاخب؛ والقديس أمبروز *Ambrose* الجليل الحكيم الهادئ والقارئ الجيد و"الروماني" الحقيقي الذي يمكن تلقيبه بـ شيشرون المسيحية؛ والقديس جيروم *Jerome*، العنيد والثابت والذي يمتلك حساسية حيوية، وخيالاً فعالاً ومشوّقاً الذي - بغض النظر عن كل الفضائح - يوحي بالنقاء وهو الأجمل في نظر جان جاك روسو *Jean Jacques Rousseau*؛ وأخيراً الدكتور العظيم وفيلسوف الكنيسة النبيل القديس أوغسطين *Augustine*.

القديس أوغسطين

فيلسوف شهير سابق، رجل محلل للأفكار، رأى كل ما تتضمنه، ومبدؤها الأول واتجاهها وأيضاً عواقبها المطلقة. وهو بالإضافة إلى ذلك خطيب عظيم؛ وكان مؤرخاً أيضاً، أو على الأقل فيلسوف تاريخ، في كتابه **مدينة الله**، وأخيراً كان شاعراً في أعماقه مشرباً بحساسية حادة في كتابه الخالد **الاعترافات**. كان الرجل الأعظم في العالم القديم.

الشعراء المسيحيون

وللمسيحية أيضاً شعراؤها: كوموديان *Commodian* وجوفينكوس *Juvencus*، والعاطفي الماهر برودنتيوس *Prudentius* والقديس بولينوس دي نولا

Paulinus of Nola. لم يبرز أحد منهم، كلهم أصحاب عاطفة حيوية، لما هو شعري عميق في المسيحية، كما أوضح شاتوبريان *Chateaubriand*.

الشعراء العلمانيون

آخر الشعراء الدنيويين كانوا أسطع من شعراء المسيحية. فقد امتلك أفينوس *Avienus* فصاحة ساحرة ولطفاً خنثوياً إلى حد ما. ولا بد من ملاحظة أنه (مع برودنتيوس) الشاعر الغنائي الوحيد بعد هوراس. وامتلك أوسونيوس *Ausonius* حساسية وموهبة وصفية بارزة؛ ورفع كلوديان *Claudian*، الخطيب في الشعر العواطف إلى درجة الفصاحة الحقيقية وحافظ على الإشراق المستمر المرهق لأنه دائم، ولكنه لم يفشل في أن يكون غلطة معجزة. ولا بد أخيراً من الإشارة إلى روتيليوس *Rutilius*، أولاً لأنه ذو موهبة، ثم لأنه حتى في وسط غزوات البرابرة قدم تأبيناً لروما اعتبر خطبة جنائزية لها؛ وأخيراً على الرغم من كونه خصماً للمسيحية، حدد بدقة التحول العظيم والنبيل من الوثنية إلى المسيحية في كتابه **الأجساد السابقة تحوّلت الآن إلى أرواح**.

الفصل الخامس

العصور الوسطى: فرنسا

أناشيد البطولة

حرر أدب العصور الوسطى نفسه من اللاتين في القرن العاشر تقريباً. وكانت هذه اللحظة حين بدأت الملاحم الشعبية التي تسمى **أناشيد البطولة** *chansons de geste* تسمع. إحدى هذه الأناشيد **أنشودة رولاند** *Song of Roland*. إنها قصة آخر صراع خاضه رولاند في طريق عودته من أسبانيا وهو يمر في رونسيفو *Roncevaux* وموته. شكل القصيدة جاف ورتيب إلى حد ما؛ ولكن هناك مقاطع من أمثال مباركة المطران توربين للمحتضر ووداع رولاند لأوليفر، ورفعُ رولاند قفازَه إلى الله في لحظة الموت الخ. و**أناشيد البطولة** كثيرة. بعضها أحيا ذكرى شارلمان *Charlemagne* ورفاقه، وغيرها أحيا ذكرى أرثر *Arthur* ملك بريطانيا وفرسانه وغيرها دار حول أبطال العصور القديمة: طروادة، الإسكندر، فلم تعرف جيداً ولكنها لم تنس. وقد انتشرت أناشيد البطولة على مدى القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

جوانفيل - فيلهاردوان

في القرن الثالث عشر ظهر مؤرخ هو جوانفيل *Joinville* صديق القديس لويس *Louis* وصف الحملة الصليبية التي شارك فيها مع سيده. إنه ذو سذاجة ورقة وعفوية وقدرة تصويرية. فيلهاردوان *Villehardouin* الذي وصف الحملة الصليبية الرابعة، التي شارك فيها، كان واقعياً - دقيقاً موجزاً مستنيراً - أوحت إليه

غرابة الأشياء التي شاهدها وعظمتها أحياناً بالنبل الحقيقي، وهو بسيط ولكنه انطباعي فردي.

التروبادور

وجد الشعر الغنائي على نحو هزيل في تلك الأقطار إلا في جنوب اللوار *Loire* في البلاد اللاتينية، بين الشعراء الذين سموا التروبادور *troubadours* ؛ على أي حال في الشمال نكتفي بالإشارة إلى واحد هو الكونت النبيل تيبو دي شامباني *Thibaut of Champagne* كتب أغنيات ذات وقع محبب تدعو إلى السعادة. إلى جانبه لا بد أن نذكر روتيبويف *Ruteboeuf* القصاص الشهير وشاعر المراثي والخطيب الغنائي، والموهوب مما يخوله أن يكون شاعراً عظيماً لو أنه عاش في فترة أكثر ملاءة وكانت لديه لغة أكثر طواعية، وأكثر وفرة وأفضل إتقاناً.

أقاصيص الثعلب

في القرن الرابع عشر، حققت **أقاصيص الثعلب** *Romances of Renard* انتشاراً شعبياً وكانت وافرة وفرة هائلة. وكل قصة كانت على غرار حكاية للافونتين تتسع بمقدار قصيدة ملحمية. وفي ظل أسماء الحيوانات كانت تختبئ الأنماط البشرية في عملها واهتمامها بالمغامرات الكثيرة: فالأسد هو الملك والدب ويسمى بروين *Bruin* هو السيد المهيمن على الأرض؛ والثعلب ماكر، مواطنٌ حذر؛ والديك، ويسمى شانتكلير *Chanticleer* كان بطل الحرب، وهلم جرّاً. بعض أقاصيص الثعلب موحية؛ وأخرى تمتلك روحاً هجائية وساخرة مسلية إلى أبعد حد.

الحكايات

كانت الحكايات *Fables* تسر أجدادنا. نوادر وقصص في الشعر تعالج في جزئها الأعظم مغامرات مواطنين، على غرار قصص لافونتين. أغلبيتها تهكم ومزاح وسخرية؛ قليل منها مؤثر ومصقول. كانت بالتأكيد القسم الحي والبارز للأدب الفرنسي القديم.

الموسوعات

اتبعت العصور الوسطى طريقة القدماء، فسعت إلى جمع كل تيارات المعرفة في مجلد واحد. تلك الكتب التعليمية سميت الموسوعات *bibles*. بعضها مشهور: **موسوعة غويوت البروفنسي** *Bible* of *Guyot of Provence* و**موسوعة هوغو البيرزي** *Hugo of Berzi*. بشكل عام في حين كانوا مثقفين بمقدار ما تتيح لهم المصادر في ذلك الوقت، كانوا أيضاً ساخرين، كما أن كل الأدب في العصور الوسطى كان ساخراً.

رومانسة الوردة

رومانسة الوردة *Romance of the Rose*، التي كتبها مؤلفان بينهما مرحلة نصف قرن تقريباً، تروي في القسم الأول، الذي كتبه وليم لوريس *William of Lorris* فن الحب في شكل رومانسة شعرية؛ والقسم الثاني الذي كتبه جون دي مينغ *John de Meung* يعتبر إلى حد ما استمراراً للقسم الأول، ولكن قبل كل شيء كان عملاً واسع المعرفة وتعليمياً، وضع فيه الشاعر كل ما يعرفه من مفاهيمه الفلسفية، بجرأة استثنائية غير متوقعة. ويقارن دي مينغ بكل جدارة برابليه *Rabelais* وليس من المدهش أن تستمر شعبية هذه القصيدة أكثر من قرنين ولا غرابة إن سحرت أو أثارت أجدادنا بحسب اتجاه عقولهم.

فروسار

كان فروسار *Froissart* ممثل التاريخ في القرن الرابع عشر، وهو مؤرخ رائع بالغ الحيوية، دائماً مليء بالفائدة، ولكن بلا جدال كان ضعيفاً في النقد التاريخي؛ ومن بين الخطباء والمناظرين والجدليين لتلك العصور لا بد على الأقل من أن نذكر جيرسون *Gerson* الذي أمضى حياته في صراع لا يتوقف باسم إيمانه المسيحي.

فإليه، من دون برهان حاسم، ينسب كتاب **تقليد يسوع المسيح** الذي، كائناً من كان كاتبه، يجب أن نؤكد أنه واحد من أنقى إنتاج الروح الدينية في العصور الوسطى.

شارل دي أولرليانز - فيون

ومن ناحية أخرى كان القرن الخامس عشر عقيماً إلى حد ما، أنتج شاعراً مميزاً واحداً هو شارل دي أورليانز *Charles of Orleans*، اللطيف والممتع؛ وشاعراً آخر ارتفع في الوقت نفسه إلى مستوى شاعر عظيم: إنه الشهير فرانسيس فيون *Francis Villon* مؤلف **قصيدة سيدات العصور القديمة**، الشهيرة، التي كانت لازمتها الأكثر شهرة هي "أين ثلوج السنة الماضية؟"

الأسرار والمعجزات

حتى نعالج مسرح العصور الوسطى من الضروري أن نعود إلى الخلف البعيد. ومن دون أن نعتبر تلك المسرحيات الورعة التي رتبها الإكليروس أو أجازها حتى في الكنائس من القرن العاشر بل أبكر من ذلك، دراما، كان هناك دراما شعبية في القرن الثاني عشر خارج الكنيسة قدمت مسرحيات حقيقية مأخوذة من الكتابات المقدسة أو ليجندات القديسين. وقد تطور هذا في القرن الثالث عشر، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر تكاثرت القصائد الدرامية المكثفة التي تحتاج إلى عدة أيام لإخراجها. تلكم كانت مسرحية الأسرار *Mysteries* كما اصطلح على تسميها، أو المعجزات *Miracles* حيث تداخلت فيها الكوميديا والتراجيديا والأعمال العظيمة في التاريخ الديني أو أحياناً لإحياء التاريخ الوطني، من أمثال **سر حصار أورليانز** التي كتبها غريبان *Greban*.

المهازل والحماقات والأخلاقيات

وجد أيضاً المسرح الهزلي. وقد زود مسرحيات المهازل *farces* التي هي في الحقيقة كوميديات صغيرة (أشهرها **مهزلة المحامي باتلين** *Patelin*) ومسرحية الحماقات *follies* هي هزلية ولكن بشخصيات طيبة مرحة من الطلبة ورجال الدين؛ ومسرحية الأخلاقيات *moralities* التي هي مسرحيات جادة صغيرة، موشاة بالكوميديا، وهي ذات شخصيات واقعية مختلطة بالشخصيات المجازية. كانت دراما العصور الوسطى كثيرة الحيوية وأصيلة نشأت من الوطن ولاءمت العواطف والانفعالات والأفكار عند الناس التي كتبت لهم، وبعد مدة قليلة راحوا هم يكتبونها.

الفصل السادس

العصور الوسطى: إنكلترا

الآداب الثلاثة

في إنكلترا، قبل الغزو النورماندي، أي قبل *1066* كان في إنكلترا شعراء سكسون تغنوا بمروءة الأجداد أو المعاصرين، ورهبان كتبوا باللاتينية سير القديسين أو حتى كتبوا التواريخ.

من عام *1066* يجب أن نميّز في إنكلترا ثلاثة آداب متوازية: الأدب اللاتيني للأديرة، والأدب الأنكلو - سكسوني، والأدب الفرنسي للغزاة.

كان الأدب اللاتيني في نثره مكرساً للفلسفة والتاريخ؛ أما في الشعر فالموضوعات أكثر تنوعاً، وقد انتعش الهجاء أكثر من غيره بشكل خاص.

وكتب شعراء اللغة الفرنسية **أناشيد البطولة** وكل الأناشيد التي من هذا الشكل والمصطلح على تسميتها **مجموعة أرثر** *Cycle of Artus* هي في معظمها من عمل شعراء ولدوا في إنكلترا.

أخيراً، بلهجات شعبية مختلفة، من سكسونية وإنكليزية غربية الخ، كتبت قصائد بالشعر أو رومانسات أو أطروحات ومواعظ وكراريس دينية مختلفة بالنثر. وأسس النورمانديون المتحمسون والنشيطون والعمليون جامعات فأصدرت ومنحت وجهزت أولئك الذين دفعتهم عاطفتهم الوطنية أو ذوقهم إلى الكتابة بالأنغلو - ساكسونية أو الإنكليزية.

شوسر - غاور

أعظم اسم في تلك المرحلة والأكثر شهرة هو تشوسر *Chaucer* في القرن الرابع عشر، مؤلف **حكايات كانتربري** ومجموعة من الكتب الأخرى. فقد امتلك خيالاً متبايناً جداً، فأحياناً نجد الفكاهة وأحياناً نجد الإحساس بالواقع، وأحياناً الحماسة وأحياناً خصوبة العقل التي جعلته جد شكسبير وسابقه. ولا بد أن نضيف إلى هذا الاسم اللامع اسم صديقه وتلميذه غاور *Gower* الطريف لأنه يمثل الآداب الثلاثة التي كانت مستخدمة في أيامه، وقد كتب بالفرنسية **مرآة التأمل** *Speculum Meditatus* وكتب باللاتينية **صوت الآلم** *Vox Clamantis* وكتب بالإنكليزية **اعترافات عاشق** *Confessio Amantis* وبمقدار ما أعرف فإن هذه الظاهرة لم تتكرر.

الفصل السابع

العصور الوسطى: ألمانيا

أول كتاب أدبي

أعظم صرح قديم للأدب الألماني **أغنية هيلدبراند** *Song of Hildebrand* ويعود إلى عصر قديم مجهول، ربما القرن التاسع، وهو شذرة جميلة وصلت إلينا عن طريق المصادفة السعيدة. فكلنا نجهل كل الجهل المؤلفات التي كتبت بالألمانية بين **أغنية هيلدبراند** و**النبلونجن** *Nibelungen* عدا بعض القصائد الدينية من أمثال **هلياند** *Heliand* بالألمانية الدنيا وسفر الأناجيل بالألمانية العليا.

النبلونجن

إنها قصيدة طويلة كتبت على الأرجح في القرن الثالث عشر (أو في تلك الفترة القريبة من أقدم الأغاني الشعبية). إنها صرح وطني عظيم بجمعها المآثر الليجندية لكل أجداد الألمان والهون والغوط والبورغنديين والألمان القدماء *Franks*. أجزاء منها ذات سمات دراماتيكية مدهشة. وقد اشتهرت مقارنتها بـ **الإلياذة**، ربما من الناحية الأدبية.

مؤلفات مختلفة

ثم ظهرت مؤلفات أقل وطنية من حيث النمط، تقلد القصائد الفرنسية: **أنشودة رولاند** و**الإسكندر** وقصائد **مجموعة أرثر** أو **الطاولة المستديرة**، وتقلد القصائد اللاتينية: من أمثال **الإنياذة** الخ. هنا أيضاً انتشرت **قصة الثعلب**، كما

في فرنسا، وحتى الآن لم يحسم السؤال إن كانت قصيدة **الثعلب** فرنسية أم ألمانية. وكانت القصائد الدينية والهجائية وفيرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ولكن البارز جداً هو العدد الضخم للشعراء الغنائيين (ديتمار دي أست *Dietmar of Ast* وكورنبرغ *Kürenberg* وفريدريك دي هوسن *Frederic of Hausen* والإمبراطور هنري السادس الخ) الذين أنتجتهم العصور الوسطى في ألمانيا. كان هذا الشعر بصورة عامة شعر عشق وكآبة، وأحياناً يكون مليئاً بالجرأة القتالية التي نجدها بين شعراء التروبادور. فالشعراء الذي تجولوا عبر ألمانيا، كما في فرنسا، من بلاط إلى بلاط ومن قلعة إلى قلعة، سموا أنفسهم شعراء العشق *minnesingers*. وأشهر الباقين هو تانهاوزر *Tannhäuser*. وقد حيكت حول اسمه ليجندة مؤثرة.

وامتلكت ألمانيا، كما امتلكت فرنسا، دراما شعبية، ربما أقل إنتاجاً ولكنها شبيهة بها. وبين أعظم التراجيديات الشعبية القديمة معروفة الآن **أنبياء المسيح** و**طراد المسيح الكذاب**، وهما غريبتان بسبب تجاور الأفعال التوراتية والأحداث الجارية. فيما بعد ظهرت **معجزات العذراء** و**العذارى الحكيمات** و**العذارى الحمقاوات**، وهي مسرحيات مختلفة مع مزيد في عدد الشخصيات والإكثار من الدقائق مع تركيز الشديد على لفت الأنظار.

الكوميديا

الكوميديا بصورة عامة غنية بالشخصيات، حازت تقديراً واسعاً، وبخاصة في القرن الرابع عشر. وما أخرج منها تحت اسم **ألعاب الكرنفال** ليس فيها شيء يذكر سوى **الحكايات** في الحوار والمشاهد المحلية والأحداث في السوق وفواصل على مفارق الطرق. هنا أجاز المرح العامي المبتذل لنفسه كامل الحرية. وقد كان النشاط الأدبي في ألمانيا في العصور الوسطى يساوي على الأقل نشاط ثلاث أمم غربية أدبية.

الفصل الثامن

العصور الوسطى: إيطاليا

التروبادور

الأدب الإيطالي في العصور الوسطى ملتحم جداً بأدب التروبادور في جنوب فرنسا. وحتى نعبر عن الحالة بدقة أكثر نقول إن الأدب احتذى "البروفنسال" بغض النظر عن الخلاف في اللهجة وامتد من منطقة الليموزين *Limousine* في وسط فرنسا إلى كامبانيا الرومانية، وقد وجد الأدب الفرنسي فقط في المقاطعات الشمالية والوسطى في فرنسا، والباقي كان أدباً بروفنساليا - إيطالياً. والتروبادور الإيطاليون، وأعنى المولودين في إيطاليا، الذين لا بد من أن نشير إليهم هم مالاسبينا *Malaspina* ولانفرانك *Lanfranc* وسيكالا *Cicala* وبارتولوميو زيوغري *Bartolomeo Ziorgi* (من البندقية) وبورديللو *Bordello* (من مانتوا) الخ.

نابولي وصقلية

نابولي *Naples* وصقلية *Sicily* حيث تأسست جامعات ضخمة، كانتا مكان الأدب الإيطالي في القرن الثالث عشر، بفضل حماسة الإمبراطور فريدريك الثاني. في هذا المكان كان بيتر فينيس الذي يعترف به كمبتكر السوناتا *sonnet*؛ وسيلو ألكامو *Ciullo of Alcamo* مؤلف أول قصيدة غنائية *canzone* إيطالية معروفة الخ. تأثير صقلية في كل إيطاليا كان إلى درجة أن كل الكتابات في الشعر في كل إيطاليا كانت تعزى إلى صقلية.

بولونيا - فلورنسا

ثم انتقل المركز الأدبي، في القرن الثالث عشر إلى بولونيا *Bologna* وفلورنسا *Florence*. من بين المشهورين في هذه المرحلة كان غويتوني أريزو *Guittone of Arezzo* الذي أشار إليه دانتي وبترارك *Petrarch* بشيء من التقدير؛ وجاكوبوني تودي *Jacopone of Todi* الذي كان صوفياً ومهرجاً في الوقت نفسه، وفيه يبحثون، بطريقة متملقة له، عن أثره كسابق لدانتي؛ وبرونيتو لاتيني *Brunetto Latini* الأستاذ الحقيقي لدانتي، الذي كان موسوعياً، بحسب النمط الدارج، والذي نشر، أولاً بالفرنسية، عندما كان في باريس **الكنز** وهو تصنيف المعرفة في زمنه، ثم بالإيطالية وسماه **الكنز** *Tesoretto* وهو تصنيف الأمثال المستخلصة من كتابه السابق، إلى جانب بعض الشعر والترجمات عن اللاتينية.

القرن الرابع عشر الذي اعتبره الفرنسيون والألمان والإنكليز أنه القرن الأخير من العصور الوسطى اعتبره الإيطاليون القرن الأول للنهضة. اسمان كبيران سيطرا على هذا القرن: دانتي وبترارك.

دانتي: الكوميديا الإلهية

لم يكن دانتي، العلامة الكبير واللاهوتي والفيلسوف والباحث اللاتيني العميق جاهلاً باليونانية، انخرط في مشاكل عصره، فنفي من موطنه فلورنسا في فتنة من الفوضى السياسية، وصفها وكجوّال وصل حتى فرنسا، فدرس في جامعة باريس، وكتبَ الأغاني وهي، إن جاز التعبير، شعر غنائي جمعه في مجلد واحد بعنوان **القصائد الغنائية** *Canzoniere* وأيضاً **الحياة الجديدة** *Vita Nuova* التي هي أيضاً مجموعة من الشعر الغنائي، وإن كان فيه المزيد من الفلسفة، وأخيراً **الكوميديا الإلهية** التي تعتبر قصيدة ملحمية لاهوتية. تتألف الكوميديا الإلهية من ثلاثة أقسام: الجحيم والمطهر والفردوس. الجحيم مؤلف من تسع دوائر تتقلص كلما اقتربنا من مركز الأرض. وهناك حشد دانتي المجرمين في التاريخ

وبشكل خاص من كان عدواً له. أكثر الموضوعات شعبية في الجحيم اوغولينو *Ugolino* في برج الجوع يفترس أطفاله الموتى، وفرنسيسكا ريميني *Francesca of Rimini* التي يروي عواطفها الآثمة وما نجم عنها من نتائج، ولقاء سورديلو *Sordello*، السيد الأعظم لمانتوا *Mantua*، متعجرف دائماً وينظر "مثل أسد مطمئن". ويتألف المطهر من تسع دوائر تتقلص كلما ارتفعت نحو الفردوس. وأخيراً الفردوس الذي يتألف من تسعة مدارات يتركب الواحد فوق الآخر، وفوق كل المدارات السبعة الأولى يستقر كوكب، والمدار الثامن هو موطن النجوم الثابتة، والخير هو المطلق الصرف، موطن الثالوث والمختارين. قوة الخيال العام والابتكار يجددان في الأسلوب دائماً، ودفء العاطفة التي تدب الحياة والحرارة في كل قسم ضمنت لدانتي الإعجاب العالمي. مجتمع الأدب معجب إعجاباً كبيراً بالجحيم؛ ولكن الانتقائيين اضطروا إلى الموافقة ولكنهم يؤمنون أن الفردوس أفضل بما لا يقاس.

بترارك

بترارك فلورنسي ولد في المنفى، ونشأ في أفيغنون *Avignon* وكاربنتراس *Carpentras* ومونبيلييه *Montpellier*، ولم يفكر في أربعة أخماس حياته إلا في أن يكون باحثاً عظيماً في الكتابة اللاتينية ويحقق سمعة كإنساني متميز. لذلك كتب مؤلفاته باللاتينية. ولكن عندما بلغ الثالثة والعشرين تأثر جداً بحب فتاة من أفيغنون، وتغنى بها حية وميتة فظلت ترفل بالمجد والأبدية، ومن هنا كانت قصيدتاه **القوافي** *Rhymes* و**الانتصارات** *Triumphs*. حساسية بترارك مذهلة؛ فلم يجد الحب الصافي، النامي صوفياً والمختلط مع الحب المقدس، نبرات أرقى وأنبل مما جاء من هذا الأفلاطوني الذي هذبه اللطف الإيطالي. صارت البترارکية نمطاً دارجاً بين أوساط الناس وغدت مدرسة بين هؤلاء الذين فوق العوام. في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان لبترارك مقلدون لا يحصون في إيطاليا، وفيما بعد في فرنسا. ومن المستحيل ألا نضرب مثالاً بـ لامرتين *Lamartine* باعتباره الأخير في الزمن.

بوكاشيو: الديكاميرون

بعد هذين العظيمين يأتي بوكاشيو *Boccaccio*، المولود في باريس ولكنه إيطالي الأبوين، استقر في نابولي في بلاط الملك روبرت. كان معجباً جداً بدانتي وبترارك، وكتب عدة قصائد جديرة بالتقدير، ولكن لا شك في حالة يأس من تحقيق قمة أنماطه وأيضاً ليرضي ذوق ماري بنت الملك روبرت، كتب القصص الخليعة التي جمعت في مجموعة بعنوان **ديكاميرون** *Decameron* والتي وطدت شهرته. إنه أحد أنقى المؤلفين، كأسلوبي، في الأدب الإيطالي وربما اعتبر المبدع الأساسي للنثر في بلاده.

القرن الخامس عشر في إيطاليا

القرن الخامس عشر، المعتبر أقل عظمة بين الإيطاليين من القرن الرابع عشر، أنتج كثيراً من الرجال الحكماء: مارسيليو فيشينو *Marsiglio Ficino* وبيكو ديلا ميراندولا *Pico della Mirandola* وأوريسبا *Aurispa* الخ. ولكن يجب ألا نحذف من الشعراء أمثال أنجي بوليتيان *Ange Politien* الإنساني المخلص والشاعر الغنائي اللطيف؛ وأقدم شعراء الدراماتيك من أي صنف من أمثال بولشي *Pulci* وبوجاردو *Bojardo*. وفي النثر نشير إلى باندولفيني *Pandolfini* سيد الحياة اليومية ومخططها، كما كان زينوفون في اليونان وليورناردو دافنشي *Leonardo da Vinci*، الرسام العظيم الذي ترك اطروحة في فنه؛ ويجب ألا ننسى سافونارولا *Savonarola* الذي كان خطيباً رائعاً.

الفصل التاسع

العصور الوسطى: أسبانيا والبرتغال

بداية الأدب الأسباني

الأدب الأسباني المعروف لا يعود إلى ما بعد القرن الثاني عشر. وكالأدب الفرنسي بدأ بـ **أناشيد بطولة**، وإذا كان لفرنسا رولاند، فإن لأسبانيا السيد *Cid*. **قصيدة السيد** أو **أغنية السيد**، يعود تاريخها إلى بداية القرن الثالث عشر؛ بلغة فجة ولكنها معبرة تروي السنوات الناضجة والعصر القديم للضابط الشهير.

ألفونسو العاشر - جون مانويل

في نهاية هذا القرن نظم ألفونسو العاشر *Alphonso* ملك قشتالة الملقب بالحكيم أو العاقل، المحيط بكل معارف زمانه، فأنتج، ولا شك مع معاونين، **التاريخ الشامل**، وهو تاريخ اختلط بالليجندات، لكل شعوب الأرض، و**الأقسام السبعة** وهي موسوعة فلسفية أخلاقية قانونية. وابن أخيه، دون جون مانويل *Don John Manuel* وصي عرش قشتالة على القاصر ألفونسو الحادي عشر، كاتب ناصع وواسع الاطلاع، جمع قانون المملكة في مؤلفه **كتاب الطفل** وقانون الفروسية في مؤلفه **كتاب الفارس والمرافق**، مع سلسلة من الدفاعات في مجلد عرف باسم **الكونت لوكانور**.

الرومانسات

من الفترة ذاتها وإلى الخلف حتى بداية القرن الثالث عشر، إن لم يكن أبكر من ذلك، ظهر ما نسميه الرومانسة *Romancero*. والرومانسيرو عبارة عن

مجموع الرومانسات الوطنية، هي قصائد قصيرة تقريباً وليست قصائد ملحمية طويلة. كل رومانسة تروي قصة بطل تشكل رومانسيرو لتلك الشخصية، وكل الرومانسيرات *Romanceros* معاً تسمى الرومانسيرو الأسبانية. ففي رومانسيرو رودريغز *Rodriguez* نجد شباب السيد كما عرفناه، أو لأن عمره نقاه تقريباً وأكسبه روحانية، مثلاً شيمين *Chimanes* تلعن رودريغز ولكنها تسأل عن الملك في مسألة الزواج: "أوه، أيه الملك... كل يوم يشرق أراه يذبح والدي وهو يتبختر على صهوة جواده ويطلق صقره على برج حمائمي وبدم حمائمي يلطخ تنانيري ويرسل إليّ أن سيمزق كشكش ثوبي... هو الذي ذبح والدي فاسمح لي به بموجب العدل؛ فمن قدم لي الأذى أنا مقتنعة أنه سوف يقدم لي بعض الخير". فقال الملك: "سمعت دائماً ما تقولين والآن أرى أن الجنس النسائي أعظم روعة. فحتى الآن تسألني العدالة ضده والآن تسألني السماح بالزواج منه. وسأوافق بكل طيبة خاطر. سوف أبعث إليه رسالة..الخ".

القرن الخامس عشر

القرن الخامس عشر في أسبانيا، كما في كل مكان، كان خالياً من المؤلفات العظيمة. في الشعر كان عصر أغاني العشق وتأثير الأدب الإيطالي، الذي كان فيما بعد فقط عصراً سعيداً بصورة حاسمة. في النثر قد نجد الكثير من سجلات الأحداث القيمة جداً للمؤرخ، وبعض المؤلفات الأخلاقية مثل **محاورة في الحياة السعيدة للوسينا** *Lucena* وأخيراً **أمادي سدي غول** *Amadis des Gaules* وهي رومانسة فروسية قديمة ذات مصدر مجهول، أعلنها في ذلك القرن مونتالفو *Montalvo*.

الأدب البرتغالي

الأدب البرتغالي الهام جداً مع أنه تطور في دائرة ضيقة جداً هو قبل كل شيء أدب ملحمي وغنائي. والقصائد الغنائية البرتغالية محصورة تقريباً في الحب؛ وشعراء الملاحم أشهروا عدداً محدوداً من الإنجازات البارزة في التاريخ الوطني. في القرن السادس عشر فقط يمكن أن نلاحظ التوسع الأصيل للأدب البرتغالي.

الفصل العاشر

القرنان السادس عشر والسابع عشر: فرنسا

نهضة الآداب

كان القرن السادس عشر بالنسبة إلى فرنسا عصر نهضة الآداب. وما يسمى نهضة الآداب ليس سوى نتيجة الاحتكاك الوثيق للمثقفين من أي عرق مع الأدب القديم، احتكاك يقوي أحياناً الشريان الوطني وأحياناً يضعفه، بحسب الأمزجة المتباينة لتلك الأعراق.

ماروت - القديس جيليه

افتتح القرن السادس عشر في فرنسا بماروت *Marot* والقديس جيليه -*Saint Gelais*. كان ماروت مغنياً لطيفاً متدفقاً وهجائياً. كان فكهاً من دون غلّ، أو تكلف أو ادعاء؛ بعض الأحيان أنجز شعراً فلسفياً جاداً إلى حد الفصاحة. أما القديس جيليه فلأنه كان *أعظم* شاعر بلاط من بين أولئك الذين كانوا دائماً شعراء بلاط فقد صارت مكانته بين معاصريه فوق ماروت، وقد تركه مؤرخو الأدب لهذا السبب في مركزه. والحقيقة أن مؤلفه عديم القيمة. فمن المستحيل على أي حال أن نسلبه مجد كونه أدخل السوناتا من إيطاليا، حيث أقام مدة طويلة أيام صباه.

كومينز

في النصف الأول من القرن السادس عشر لا بد أن نشير إلى كومينز *Comines* مؤرخ لويس الحادي عشر، وهو مؤرخ سياسي ورجل دولة خاص

بالتاريخ، اشتهر بالذكاء في إدراك شخصيات وأمزجة الأفراد المرموقين، كما أنه كاتب يمتلك دقة وشفافية من النادر أن نجد ذلك في جيله.

رابليه

فرانسيس رابليه *Francis Rabelais* في رومانسيتيه الملحميتين غارغانتوا *Gargantua* وبانتاغرويل *Pantagruel* كان واسع المعرفة متمكناً من بعض الحكمة الفلسفية التي كان يبالغ فيها كثيراً، ولكن قبل أي شيء كان وصافاً يغوص إلى 'قلب' المضمون، ويمتلك فرن سرد قصة مثل أي فرد في العالم الواسع. أطلقوا عليه اسم "هومر المضحك" وربما لاقى الاسم المستعار قبولاً عنده.

البلياد

كان النصف الثاني من القرن السادس عشر أكثر بروزاً. ففي الشعر هناك البلياد *Pleiade*: أي "النهضة" الحقيقية والكاملة، مع أن ماروت كان صانعاً جيداً في فجرها. وتألفت البلياد من رونسار *Ronsard* ودوبيليه *Du Bellay* وبونتوس تيارد *Pontus of Tyard* وريمي بيلو *Remy Belleau* وآخرين؛ أي أناس رغبوا أن يقدموا لفرنسا بالفرنسية ما يساوي ما قدمه الكلاسيكيون في النبل والجمال. لم ينجحوا ولكن لهم الشرف أنهم تصدوا للمهمة، وكلهم أيضاً قالوا وفعلوا وأنتجوا بعض الأشياء الرائعة.

رونسار - دوبيليه

إن كان يجب كتابة الحقيقة، فقد أبدع رونسار قصيدة ملحمية يستحيل أن تقرأ، وبعض الأناشيد القوية على الطريقة البندارية؛ ولكنه كتب قطعاً ملحمية منفصلة تمتلك جمالاً حقيقياً، وإن كانت مصطنعة تافهة، وبعض المقطوعات *odelettes* التي تسحر في روعتها وأصالة شعورها، وكذلك سوناتات بديعة من كل الجهات. أما يواكيم دوبيليه *Joachim du Bellay* فقد كتب من جانبه سوناتات لا بد أن تعد بين السوناتات الأعظم جمالاً في اللسان الفرنسي - أما البقية فإلهامات مقبولة.

الشعر الدرامي

يضاف إلى مجموعتهم بعض الشعراء الدراميين الذين لم يمسكوا بعد على ما يؤلف التراجيديا الحية والذين، حتى عندما يقلدون يوريبيدس، ينتمون إلى مدرسة سينيكا، ولكنهم يعرفون كيف يكتبون بالشعر، ليصنعوا خطاباً ومرثاة لطيفة. نشير إلى أبرزهم جوديل *Jodelle* وروبرت غارنيير *Robert Garnier* ومونتكرستين *Montchrestien*.

كتاب النثر: أميوت - كالفن

في النثر كان هناك في النصف الثاني من القرن السادس عشر مترجمون من أمثال أميوت *Amyot* الذي تنطح لبلوتارك في لغة فرنسية شفافة مليئة بالسهولة واللطف، ولكن أيضاً ببعض اللامبالاة. وعرضت الكتابات الدينية كتلك التي لـ كالفن *Calvin* بأسلوب صعب و"مخيف" كما عبر عن ذلك بوسويه، فظهرت شديدة قوية رصينة. بين الكتاب السياسيين كان الطليق اللسان لابواتيه *La Boëtie*، صديق مونتين، الذي في كتابه **خطاب في الخدمة الطوعية** تنبأ بحقوق الشعب ضد الفرد، أي الملك. وبين مؤلفي المذكرات كان مونتلوك *Montluc* وبرانتومي *Brantôme* المصوران بطريقتين مختلفتين، ولكن كليهما محب للاستطلاع وصاحب معلومات ومحترس ومجهز التاريخ بإسهامات هامة.

أخلاقيون: دوفير

أخيراً كان هناك أخلاقيون من أمثال دوفير *Du Vair* الذي تناسوه زمناً طويلاً ومونتين. دي فير خطيب فصيح يعرض وفرة من الجرأة أثناء اضطرابات الجمعية؛ ترك بعض الأطروحات الفلسفية: **فلسفة الرواقيين الأخلاقية**، و**الثبات والمواساة في الكوارث العامة** الخ.

مونتين

مونتين أقل من متزمت ورواقي وأكثر من كاتب، وواحد من اثنين أو ثلاثة من أعظم جهابذة النثر الذين أنتجتهم فرنسا على الإطلاق، امتلك حساً رفيعاً

يشحذه ذكاء ويغنيه خيال ساحر. وحسب مزاجه - رواقي حيناً ثم أبيقوري ثم متشكك - دائماً حكيم ومهذب وأيضاً عاشق صادق لعظمة الروح والشجاعة، وهو أفضل المرشدين وأفضل الرفاق عبر الحياة، وعنه أكثر من أي شخص آخر يجب أن يقال: "إذا وجدت متعة فيه فقد استفدت منه". المقاربة الوحيدة يمكن أن تكون أنه كتب قليلاً جداً عن نفسه، أي تجنب الدخول في التفاصيل الشخصية على نحو جيد.

مطلع القرن السابع عشر

كان النصف الأول من القرن السابع عشر في فرنسا مجرد نتجية لازمة للقرن السادس عشر، مع أنه من الطبيعي أن يكون فيه بعض الشخصيات المميزة ومع مسعى، عملياً مسعى منفرد، لرد الفعل ضد القرن السادس عشر. في تلك المرحلة يمكن أن نجد كتاباً من أمثال أغريبا دوبيني *Agrippa d'Aubigné* الذي كان غارقاً كلياً في روح القرن السابق؛ ودوبيني الظريف اللطيف، وأيضاً اللائق والذكي، وهذا ما ينسى في الغالب، كان جريئاً وعاطفياً، ومقاتلاً فظاً وعنيفاً وبشكل خاص في تراجيدياته، التي هي هجائيات فجة على نحو صريح، تزينها مقاطع جميلة مدهشة تتكرر كثيراً ضد الكاثوليك وقادتهم. آخرون من أصحاب مزاج مختلف ظهروا حتى أكثر من شعراء القرن السادس عشر، من تلك الحرية والخيال والفوضى التي كانت تميز عصر رونسار. أما بالنسبة إلى الشعراء فقد اعتبروا مدخلاً إلى أول مدرسة رومانتيكية. ثيوفيلوس دي فيان *Theophilus de Vian* الشاعر الرائع والعظيم ولكنه المفرط في التبذير، لم يعمر طويلاً حتى يصبح حكيماً ويحصل على السيطرة الذاتية: فسيرانو دي برجراك *Cyrano de Bergerac* كان مجنوناً لامعاً، أحياناً يتوقد ذكاْ وخيالاً، ولكنه في الغالب قذر ومضحك. سانت - أمانت *Saint-Amant* ذو وفرة في الخيال والقدرة على الشعور الشعري الحاد، ولكن ينقصه الذوق وكان صبيانياً في أغلب الأحيان. والأعقل منهما، ولكن الأكثر إسهاباً وثرثرة وأبطأ وأقل سيطرة ديسبورتيس *Desportes* الذي ترجم إلى الفرنسية نظماً الشعر الإيطالي في القرن

السادس عشر، بالتفافات جذلة من التعبير، وبيرتوت *Bertaut* الكئيب واللطيف الذي ينقصه الإشراق حتى لو امتلك انفعالاً شعرياً.

رينيير

أيضاً اتخذ رينيير *Regnier* الساخر، تلميذ هوراس وجوفينال، موقفاً عقلانياً من القرن السادس عشر بسبب سذاجته وفجاجته وعدم تجنب الفحش، مع أنه كان شاعراً حقيقياً، قوياً خطابياً وإبيغرامياً، وذكياً وكاريكاتورياً لاذعاً.

النفائسيون والساخرون

ثم أعقبهم النفائسيون *précieux* (عشاق القيم النفيسة - المترجم) والساخرون *burlesques* وهم يشبه بعضهم بعضاً، فالنفائسيون يسعون وراء الذكاء ويعتقدون أن كل فن أدبي مؤلف من القول بغض النظر عن الزيّ اللطيف وغير المتوقع؛ والساخرون أيضاً يسعون وراء الذكاء ولكن في مستوى أدنى، ويرغبون أن يكونوا "مضحكين" مهرجين، ويميلون إلى السرد الطويل أو المقالب الفظة في الفكر والأسلوب والتقليد الساخر. وفواتور *Voiture* هو أعظم ممثل لامع للنفائسيين وسكارون *Scarron* أعظم ممثل لامع للساخرين.

ماليرب

في أواسط هذا الأدب المستهتر حاول رجل واحد أن يفرض العقل ودقة التفكير والذوق والإيجاز. كان هذا الرجل هو ماليرب *Malherbe* الذي كان أيضاً شاعراً غنائياً قوياً وأسلوبياً مع ميل إلى التناسق. كان تأثيره هاماً، ولكن بعد أربعين سنة من عصره؛ إذ أن شعراء *1660* هم الذين تكوّنوا منه وزعموا أنهم تلاميذه. في أيام حياته كان من تلاميذة فقط ميانارد *Maynard* وراكان *Racan*، أو بالأحرى كانا مشايعين له، فعملهما لا يشبه عمله إلا قليلاً.

المسرح

على خشبة المسرح كان القسم الأول للقرن السابع عشر بالتأكيد حتى *1636* النتيجة اللازمة فقط للقرن السادس عشر. هاردي *Hardy* (الكسندر هاردي) الذي يكتب من دون طريقة أو قاعدة، بالإضافة إلى كونه شاعراً ضعيفاً فقد اتجه إلى المسرح بينما ميريه *Mairet* تقليداً للإيطاليين وتقليداً أيضاً للدراميين الكثيرين في القرن السادس عشر، تحوّل إلى تأسيس التراجيديا الرسمية، ولكن من دون أن يؤثر تأثيراً كبيراً لأن موهبته كانت ذات أوصاف متدنية.

أخيراً ظهر كورنيل، وبعد أن تلمس طريقه قليلاً، خلق التراجيديا الفرنسية؛ لكن بما أن هذا كان فقط في *1636* وبما أن حياته الطويلة نضجت في النصف الثاني للقرن، فسوف نعالجه بعد ذلك بقليل.

النثر: بلزاك - ديكارت

في النثر كان النصف الأول من القرن السابع عشر مثقلاً بالأعمال الهامة. فكاردينال دي بيرون *Cardinal de Perron*، الذي ابتدأ شويعراً ركيكاً، صار خطيباً عظيماً ومجادلاً عنيداً. غيز دي بلزاك *Guez de Balzac*، ضعيف في الأفكار لكنه كاتب جيد جداً، مع أنه يبتعد قليلاً عن الدقة، كما لاحظ فولتير، ونقل التناسق إلى جمله في رسائله وفي كتابه **سقراط مسيحياً**. وصنف فوغلاس *Vaugelas* قانون اللغة المؤسس على العادات. وأعاد ديكارت *Descartes* بأفكاره الفلسفية التي لا حيلة لنا بها هنا، في مراحله الواسعة المؤثرة، الموزعة بشكل جيد والقوية، الجملة الشيشرونية وإن من دون زخرفها الخفيف، وبمقياس عظيم شكلت التصميم عندما تدفقت فيما بعد فصاحة بوسويه. وأهم أعمال ديكارت هي **خطاب في الطريقة** و**التأملات** و**أطروحة في الأهواء**.

العصر الذهبي: كورنيل

النصف الثاني من القرن السابع عشر في كل المجالات هو العصر الذهبي للأدب الفرنسي. شعراء كبار وكتاب نثر كبار تجمعوا في حشود. ولنبدأ من الشعراء الدراميين الذين أغنوا معظم أمجاد هذه المرحلة، فهناك كورنيل الذي من *1636* مع مسرحية **السيد** كان مفعماً بالروعة والذي قبل *1650* أنجز معظم أعماله الجميلة، **سينا - هوراس - بوليوكت**، وتابع لأربع وعشرين سنة بعد *1650* ليغني خشبة المسرح بالمسرحيات التي امتلكت الكثير من الصفات، من بينها لا بد أن نذكر **دون سانشو أراغون - نيكوميدس - أوديب - سيرتوريوس - سوفونيسبا - تيتوس وبيرينيس - سايكي** (مع موليير) **رودوغوني - هيراكليوس - بولشيرا**. ولا بد من اعتبار كورنيل الخالق الحقيقي لكل الدراما الفرنسية، لأنه كتب الكوميديا والتراجيديا والأوبرا والميلودراما. وفي هذا كان بعيداً عن براعته الشاملة، بحيث وضع علامته، وفي أعظم أعماله كان يرسم الإرادة البشرية تتغلب على العواطف، إن جاز القول، مخموراً بنصره وقوته الخاصة، بحيث صار المدافع العظيم عن المقدرة ورسولاً بارزاً للواجب.

راسين

راسين المختلف كلياً من دون أن يعارض الواجب، أحب العواطف الصارخة المنتصرة على الإنسان والإنسان الذي يقع ضحية لعواطفه وسوء حظه الجارف وما ينجم عنه، وهكذا قدم درساً أخلاقياً. كان أكثر اختراقاً للنفس من كورنيل، مع أن الأخير يعرف القلب البشري جيداً، وأظهر نفسه حكيماً عاجزاً في الإنشاء والنزعة الدرامية، وكذلك كان سيداً للشعر لا نظير له. تراجيدياته وبخاصة **أندروماك - بريتانيكوس - بيازيد - فيدر - أتالا** تظل دائماً تسحر البشرية.

موليير

موليير الذي كان موهوباً على نحو كبير لانتزاع الضحك بأسبابه ونتائجه، بنظرة سريعة جداً ونفاذة، تسلح بالحس العام الضيق ولكنه الصلب، معتقداً أنه يسر الطبقات الوسطى في زمنه، فامتلك الدعابة الساخرة المدهشة، ولم يقدم للمشاهد فرصة للتفكير أو التنفس - باختصار إنه كاتب عظيم مع أنه سريع وقليل العناية - خلق ريبتواراً للكوميديا (**مدرسة النساء - دون جوان - طرطوف - عدو البشر - النساء المتحذلقات**) التي تركت خلفها كل كوميديا، وقضت على كل منافسة في زمنه، والتي لم تعرف كسوفاً إلا في أواسط القرن الثامن عشر، ولمدة مائة وأربعين سنة برهن على بهجة أوروبا. ويظل سيد الكوميديا الشاملة.

بوالو

كان بوالو *Boileau* رجل الإحساس السليم والقدرة والذوق الرفيع، الذي كتب الشعر كتابة صناعية. ولم يكن هذا كافياً لبناء شاعر عظيم ولكنه كان كافياً ليجعل منه ما كانه، ساخراً مسلياً ولاذعاً وأخلاقياً مريحاً وناقداً في الشعر - مثلما كان أستاذه هوراس - وخبيراً وبارعاً ويمتلك سلطة كبيرة. ظل كتابه **فن الشعر** لمدة طويلة لوائح قانون البرناس *Parnassus* وحتى الآن يمكن أن يقرأ ليس فقط بمتعة بل أيضاً بفائدة.

لافونتين

كان لافونتين أحد أعظم الشعراء في أي مرحلة. امتلك عاطفة عميقة نحو الطبيعة، ومعرفة كبيرة ونافذة بشخصية البشر رسمها تحت أسماء الحيوانات؛ كان حراً وخيالياً كفيلسوف ولكنه جيد التعلم وأحياناً كان عميقاً؛ لديه إحساس لطيف ومشرق قابل أحياناً للكآبة وأيضاً بين حين وآخر كان قابلاً للرثاء اللطيف؛ وقبل كل شيء كان موهوباً بحس فني لا نظير له، ضمن له

أسلم وأعظم وأروع معالج للشعر والقوافي والمقاييس الموسيقية، قبل فكتور هيغو. ومن الصعب جداً أن نشخص ما ينقصه أكثر مما نعدد كثرة المواهب المذهلة التي كانت فيه. النقص الكامل للأخلاقية أو عدم اهتمامه الصريح بهذا المجال شكّل الموضوع الوحيد الذي نأسف له.

طاقة ثانوية

إلى جانب هذه العبقريات العظيمة يمكن أن نشير إلى الموهبة الثانوية؛ ولكن لا نشعر بندم في إشارتنا إلى سيرغريس *Segrais* الشاعر اللطيف في الرعويات، وبنسيراد *Benserade* الذي نظم للحفلات التنكرية نظماً لطيفاً وكان قابلاً في بعض الأحيان أن يكون ذكياً ولكن أيضاً أن يكون رثائياً لطيفاً.

كبار كتاب النثر

كتاب النثر في النصف الثاني للقرن السابع عشر فيلق ولكنهم فشلوا بعض الفشل في تحقيق العظمة. لاروشفوكولد، في مجلده **الأقوال المأثورة**، حفظ لنا الأفكار التي كانت في الغالب عميقة بترتيب مفرط الدقة والرهافة. وسرد لنا كاردينال دي غيز سيرته الصاخبة في كتابه **مذكرات** الذي أحيا وشخص فيه كل ما حدث. وفسر لنا أرنولد *Arnauld* ونيكول *Nicole* كاثوليكيتهما المتزمتة، التي كانت جانسينية *Jansenism* بمجلدات متماسكة ومشرقة؛ والأخير، وبشكل خاص، يستحق الاعتبار وفي كتابه **مقالات أخلاقية** أثبت أنه كاتب ممتاز. ميزيريه *Mezeray* الواعي والجاد والظريف، بالإضافة إلى كونه كاتباً قديراً، اعترفوا به أنه أقدم مؤرخ تاريخي. بوردالو *Bourdaloue*، المنطقي العميق والمادي الممتع، من منبره كواعظ أطلق خطابات أعجب بها الناس، مع أنها أنشئت بصورة عقائدية، والتصوير بالكلمات ساخراً من الأنماط والأشكال الغريبة في أيامه. مالبرانش *Malebranche* الذي أعاد الاعتبار لما فكر به ديكارت وأحيا استنتاجاته، ونظمها في كتابه **البحث عن الحقيقة** على شكل

نظام كامل للفلسفة الروحية والمثالية التي أوضحها، على الرغم من عمقها، وجذبها لمزايا خياله القوي والسهل ولأسلوبه الغني والوافر والمرن، بحيث حقق السعادة الوسيلة السعيدة بين المحادثة والتعليم. ولكن خمسة كتاب من الصنف الراقي دخلوا الصدارة الخالية، مستقطبين الاهتمام العام ومحافظين عليه: باسكال *Pascal* وبوسويه ومدام دي سيفيني *Mme. de Sévigné,* ولابرويير *La Bruyère* وفنلون *Fénelon*.

باسكال

باسكال باحث وأيضاً عن طريق الثقافة العلمية رياضي ومهندس وطبيب، لم يتجه إلى الأدب الذي احتقره، بل إلى عرض تلك الأفكار الدينية التي في عمر الثالثة والثلاثين كانت غالية على قلبه. وللدفاع عن أصدقائه الجانسينيين ضد خصومهم الجزويت، كتب **الرسائل البروفنسالية** (*1656*) التي طالما اعتبرت أعظم صرح في النثر الفرنسي الكلاسيكي؛ ليست هذه نظرتنا، ولكنها بالتأكيد تشكل تحفة من النقاش والديالكتيك والسخرية والدعابة والفصاحة، بأسلوب جذاب ساحر. توفي صغيراً تاركاً ملاحظات حول مختلف الموضوعات، الأكثر تخصصاً في الدين والفلسفة والأخلاق، جمعها تحت عنوان **خواطر** وهي نتاج فيلسوف مسيحي عظيم، وأخلاقي عميق التفكير وخطيب دقيق مدهش، وكذلك شاعر لا تنقصه الحساسية الحادة ولا الخيال الضخم المهيب.

بوسويه

بوسويه معترف به عالمياً بأنه ملك الخطباء الفرنسيين؛ وعظ بفصاحة جادة مهيبة ضخمة رائعة جهورية، تغذيها معلومات من الكتابات المقدسة ومن الآباء ملفتة للنظر ومقنعة ومفحِمة. خطاباته الجنائزية القليلة (هنرييتا *Henrietta* الفرنسية وهنرييتا الإنكليزية والأمير دي كوندي *de Condé*) عبارة عن قصائد نثرية عن المجد والأسى والشفقة. كتب ضد كل أولئك الذين اعتبرهم أعداء الدين الحقيقي **تاريخ الخلافات والخصومات الصامتة** وهي أعمال خلافية متلألئة

بالسخرية والفصاحة الرفيعة. عرف كل مصادر اللغة الفرنسية والأسلوب الفرنسي، وعلى يديه توسعت. وعلى الرغم من أخطائه التي كانت أخطاء مرحلته، فإن سجله يحسب في تاريخ فرنسا سجلاً عظيماً، سجلاً بلغ فيه الدين الذي ينتمي إليه أعلى ذراه وقتَ كان أسلوب النثر الفرنسي في قمته.

مدام دي سيفيني

كتبت مدام دي سيفيني *Madame de Sévigné* رسائل فقط إلى أصدقائها؛ لكنها كانت رسائل ذكية حيوية تصويرية برعت في سرد نوادر عصرها ورسم المشاهد وبخاصة الهام منها، وقد كتبتها بأسلوب شيّق جذاب، موحدة بين وعد *1630* وحصاد *1670* بحيث لا يزال عملها واحداً من أعظم الأعمال المفضلة لدى أصحاب الذوق الأدبي.

كانت صديقة للاروشفوكولد والكاردينال دي ريتز *de Retz* ولتلك اللطيفة الظريفة الرقيقة مدام دي لافاييت *Mme. de la Fayette* التي لا تزال روايتها **أميرة المفاتيح** تقرأ باهتمام وانفعال.

لابروير

ترجم لابروير ثيوفراستوس وتابعه؛ كان أخلاقياً أو بالأحرى وصاف أخلاق. وصف البلاط والمدينة والقرية (نادرة جداً) والريف. كان يبحث عن الحمقى حتى يجلدهم بالنقد. رسم، أو بالأحرى نقش بطريقة قوية ما كان حاداً مثل حامض النتريك. شديد المرارة حتى النهاية، أحياناً ينطلق من غير المتوقع والحساسية المتفردة جداً جعلته محبوباً. أحياناً يقلد لاروشفوكولد، ولكن يشكل خاص في انسجام مع طبيعته، فطوّر الأسلوب الموجز الدقيق الساخر الذي أصبح أسلوب الأخلاقي بل أسلوب المؤلف العالم حتى الخمسين سنة التالية، الأسلوب الذي كان أسلوب مونتسكيو *Montesquieu* وفولتير، وحل محل الأسلوب المسهب المؤدى ببراعة والمتوازن والمنسجم والموزون لغالبية كتاب القرن الثامن عشر. في حقل السخرية، حيث بذرها بوفرة، أكثر حتى من موليير، فالتقطها الشعراء

الساخرون في القرن الثامن عشر بكثرة، مما جعلهم أقل حساباً (إذ من الأفضل أن تراقب من أن تقرأ) للتحدث عن المؤلف الحكيم والعبقري لكتاب **الشخصيات**.

فنلون

لم يكن لدى فنلون الفردي والأصيل للغاية، أفكار ذاتية يتجرأ عليها أحياناً، فدائماً هو عملي وكريم ونبيل، فهو واعظ مثل بوسويه؛ وأيضاً مثل بوسويه كان ماهراً متقناً ومجادلاً عنيداً، بينما من حيث وصية دوق بورغندي، التي أوكلت إليه، صار راوي حكايات أو مؤلف محاورات وإلى درجة ما كاتب رومانسات أو شاعراً ملحمياً في النثر في كتابه الشهير **تليماك** *Telemachus* الذي أفرطوا في الإعجاب به ثم بخسوه حقه، والذي بالرغم من ضعفه يظل مفعماً بالقوة والإشراق المذهل. ولا نزال نلاحظ في هذه الأيام عودة إلى أمير الكنيسة والأدب، المركب الذهن بل المعقد الفكر، ولكن قلبه كان نقياً وكان تفكيره في أعلى مستوىً.

الفصل الحادي عشر

القرنان السادس عشر والسابع عشر: إنكلترا

العصر الإليزابيثي: سبنسر

العصر الإليزابيثي في إنكلترا هو الفترة الممتدة من بداية حكم إليزابيث حتى نهاية خليفتها جيمس الآول؛ أي من عام *1558* حتى *1626*. كان هذا العصر الذهبي في الأدب الإنكليزي: المرحلة التي فيها، وقد أيقظتها النهضة أو أثارتها، أنتجت عبقريتها كل تطوراتها في ثمار كانت مدهشة.

أولاً هناك سبنسر *Spenser* الذي أخصبته النهضة الإيطالية والموهوب بالخيال الجامح لأبناء جلدته، الذي كتب الرعويات، في ديوانه **روزنامة الراعي** مقلداً ثيوقريطس وفرجيل وكذلك إيطاليي القرن السادس عشر، والذي قدم أوصافاً ساحرة في ملحمته **ملكة الجن**.

يليه سدني *Sidney* كاتب السوناتا العاطفية والمشرقة، ثم شعراء الدراما، ذلك المجد الأعلى لهذه المرحلة العظيمة.

المسرح: مارلو

كما في فرنسا، تكرس المسرح الإنكليزي في العصور الوسطى لإخراج مسرحيات الأسرار (تحت اسم المعجزات) بعد الأخلاقيات. وكما في فرنسا، كانت التراجيديا، على وجه الدقة، قد تكوّنت في القرن السادس عشر. ونحو أواخره ظهر مارلو *Marlowe* وهو عبقرية فذة، لا يزال قاسياً ولكن بقوة غير عادية وبمزيد من الغنائية. أعظم أعماله **الدكتور فاوست** و**إدوارد الثاني**.

شكسبير

ثم جاء (في الوقت ذاته مثل البقية، لأنهم كلهم في العمر ذاته، وإن ظهر مارلو أبكر منهم) وليم شكسبير *William Shakespeare*، الذي ربما كان أعظم شاعر درامي معروف. حصيلته الضخمة، التي تشمل مسرحيات وضعت من دون اهتمام، حتى يمكن للمرء أن يغامر ويقول إنها وضعت بطيش، أيضاً تتضمن الكثير من المسرحيات الرائعة: **عطيل - روميو وجولييت - ماكبث - هاملت - ترويض الشرسة - زوجات وندسور المرحات - كما تتمناه - العاصفة**. أنماط شكسبير وشخوصه، التي ظلت مشهورة ولا تزال يشار إليها يومياً في التواصل البشري تتضمن عطيل *Othello* تلك الشخصية التراجيدية للغيرة؛ وروميو وجولييت *Romeo and Juliet*، وهما عاشقان شابان فصلت بينهما عداوات أسرتيهما ولكن الموت وحدهما؛ وماكبث *Macbeth* والليدي ماكبث، وهما مجرمان طامحان؛ وهاملت *Hamlet*، الفتى صاحب الذهن العظيم والقلب الكبير ولكنه ضعيف الإرادة التي جعلته ينوء تحت ثقل المهمة ويصل إلى حد الجنون؛ وكودرديلا *Cordelia* أنتيغوني الإنكليزية، الابنة المخلصة للملك لير؛ وفلستاف *Falstaff* النهم الجبان والمستهتر والمتقلب، نوع من الخليط الإنكلو - ساكسوني. كل الأدب الدرامي خرج من شكسبير. وقد أدخله إلى فرنسا فولتير ثم ازدراه هو نفسه لأنه أعقبه فقط في الشعبية؛ وبالتالي كان مبجلاً وممدوحاً إلى أعلى حد، وقلده إلى حد بعيد الرومانتيكيون. إلى جانب أعماله الدرامية ترك شكسبير السوناتات، بعضها غامض، ولكن البقية جيدة.

بن جونسون

بن جونسون *Ben Jonson* الكلاسيكي الدقيق المقلد المخلص الظريف لكتاب العصور القديمة، المهتم بالشخصيات والعادات غير المألوفة، وُهب خيالاً حيوياً جاهزاً في كل من الكوميديا والتراجيديا مثل شكسبير، ونجح بخاصة في الكوميديا (**كل امرئ ومزاجه - المرأة الصامتة** الخ.). بومونت *Beaumont*

وفليتشر *Fletcher*، اللذان كتبا بالتعاون، ممتلئان علواً ورقة وزخرفاً، عبرا عن ذلك بأسلوب اعتبره أبناء جلدتهما جميلاً جمالاً استثنائياً.

كتاب النثر: ليلي - سيدني - بيكون - بورتون

كانت هذه المرحلة المدهشة منتجة في النثر كما كانت في الشعر. ليلي *Lyly* الذي يتطابق تقريباً مع فواتير *Voiture* الفرنسي، أبدع الأسلوب المرن *euphemism*: أي الدقة الذكية. سيدني *Sidney* في كتابه **أركاديا** *Arcadia* أسس مثالاً جاداً للرومانسة الفروسية. وفي كتابه **دفاع عن الشعر** أسس النقد الأدبي. ولفرانسيس بيكون *Francis Bacon* المؤرخ والأخلاقي والفيلسوف، وربما المتعاون مع شكسبير، مكان يساويه في تاريخ الأدب كما في تاريخ الأفكار الفلسفية. وروبرت بورتون *Robert Burton* الأخلاقي أو بالأحرى المتأمل، الذي اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو ديمقريطس الصغير لأنه كان مستغرقاً في الحزن. ترك كتاباً عظيماً، ولكن فيه الكثير من الاقتباسات سماه **تشريح الكآبة**. وهناك تشابه كبير بينه وبين سينانكور *Sénancour* الفرنسي. ستيرن *Sterne*، من دون إقرار، سرق الكثير منه. إنكليزي بعمق. لم يخلق كآبة وإنما ساهم فيها وجعلها اختصاصه. وعلى الرغم من طيشه ونزواته كانت لديه ميزة أدبية عالية.

الشعر: وولر

القرن السابع عشر الإنكليزي، إذا أردنا الدقة، ابتدأ فعلياً حول عام *1625* وكان متخلفاً عن القرن السادس عشر، الذي من السهل تفسير ذلك بالحروب الأهلية المدمرة لإنكلترا في هذه المرحلة. في الشعر، من جهة، يمكن أن نلاحظ الأبيقوريين الضعفاء والممتعين، الذين كان أبرز ممثل لهم وولر *Waller* رجل العالم الذكي، الذي سكن في فرنسا مدة طويلة، وكان صديق سانت أفريموند *Saint-Évremond* (الذي قضى هو نفسه جزءاً من حياته في إنكلترا). نظم قصيدة مديح جميلة في ابن عمه كروميل *Cromwell* وفيما بعد قصيدة في

تشارلز الثاني، فأخبره الأخير "هذه ليست كتلك التي قلتها في كروميل" عندئذ أجاب "سيدي، أنت تعلم أن الشعراء دائماً ينجحون في الخيال أكثر من الواقع". هنا كان رجلاً شديد الفطنة.

هربرت - هابنغتون

أيضاً لا بد أن نلاحظ متقشفاً وصوفياً مثل هابنغتون، حزيناً وكئيباً بقدر ما كان متعطشاً للفناء مثل شوبنهور *Schopenhauer* الحديث: "يا إلهي، إن كان لا بد من قانونك الأعلى، إن أردت أن تكون هذه اللحظة هي الأخيرة حيث أتنفس هذا الهواء، فإن قلبي يطيع، ويسعد أن يستريح بعيداً عن الفضل الزائف للعظماء، بعيداً عن الخيانة التي تفترس العدالة...".

الشعراء الدراميون

دعنا نلمح إلى الشعراء الدراميين المقدرين. دافينانت *Davenant*، ربما كان ابناً لشكسبير، وأوتوي *Otway*، مؤلف **فينيسيا المصونة** الشهير، صاحب التعديلات الكثيرة من الفرنسية **تيتوس وبيرينيس - أحابيل سكابين** الخ، ودرايدن *Dryden* الانفعالي المتشدد، ولكنه الموهوب بعبقرية درامية، مؤلف **الملكة العذراء - الجميع للحب** (كليوباترا) – **دون سيباستيان**، كان دائماً متردداً بين تأثير شكسبير والتأثير الفرنسي والميال أيضاً إلى المشاهد العاهرة ولكنه مشجن وفصيح.

ملتون

بمعزل عن هؤلاء ظهر ملتون، المؤلف الخالد لملحمة **الفردوس المفقود**، التي كانت نمطاً ونموذجاً للملحمة الدينية، التي يتخللها في الحقيقة شعور ديني متحمس، ولكن أيضاً يمتلك فخامة بارزة جداً واتساعاً فلسفياً. صار ملتون كتاباً مقدساً ثانياً للشعب الذي كان الكتاب المقدس دراسته اليومية الأساسية الحتمية. وإلى **الفردوس المفقود** أضاف ملتون **الفردوس المستعاد** وقصيدة **شمشون**.

وبعيداً عن قصائده الدينية العظيمة كتب قصائد لاتينية (بالأخص في صباه) مستساغة جداً، وأيضاً مؤلفات في النثر، وبصورة عامة فيما يخص السياسية النقاشية، التي نبعت من عقل قوي ومجيد. وملتون من ناحية الإنتاج الغزير وحياته المتقلبة بين الأدب والمعارك الثقافية لعصره، يقارن بفولتير، يوضع تحفظ على شخصيته الأخلاقية الرفيعة، بينما لا مقارنة تجرى مع الفنان الفرنسي. وقد كان مستقيماً كلياً. وعندما بات أعمى كتب:(ندع المقتبس بلغته لسهولة لغته وللحفاظ على الإيقاع المنسجم والقوافي الطلقة الموحية وعلى ترتيب الأبيات السطري كما أراده الشاعر - المترجم)

Cyriack, this three years' day these eyes, though clear,
To outward view, of blemish or of spot,
Bereft of light, their seeing have forgot;
Nor to their idle orbs doth sight appear
Of sun, or moon, or star, throughout the year,
Or man, or woman. Yet I argue not
Against Heaven's hand or will, nor bate a jot
Of heart or hope, but still bear up and steer
Right onward. What supports me, dost thou ask?
The conscience, friend, to have lost them overplied
In Liberty's defence, my noble task,
Of which all Europe rings from side to side.
This thought might lead me through the world's vain mask
Content, though blind, had I no better guide.

كتاب النثر البارزون

لا بد أن نلاحظ في النثر، من المتزمتين جورج فوكس *George Fox* مؤسس طائفة الكويكرز، الخطيب العاطفي القوي مؤلف **كتاب الشهداء** وجون بانيان *John Bunyan* زاهد عنيد مؤلف كتاب **النعمة الزاخرة** وهو نوع من السيرة الذاتية المهذبة، و**رحلة الحاج** الذي أصبح أحد كتب التهذيب والتهذيب الروحي للمؤسسين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الماجنين ويشرلي *Wycherley* الذي أدرك الوضاعة الأخلاقية وأخفاها بجمالية، ومصدرها يعود إلى موليير، فنقل هذا المزاج الغالي *Gallic* إلى أقصى حدود التطرف بتقليد لا يخجل

لمسرحية **مدرسة النساء** ومسرحية **عدو البشر** (**زوجة ريفية - المخادع المفضوح**) وكونغريف *Congreve* الممتع، وهو أكثر إمتاعاً - ذكي روحي ساخر يكتب كتابة ممتازة، يعرف كيف يخلق نمطاً ويسحر معاصريه من دون أن يفشل في الكتابة للأجيال القادمة في **الأعزب - حب من أجل الحب - طريق العالم**.

نيوتن - لوك

يجب ألا أنسى في هذه الفترة نيوتن *Newton* ولوك *Locke*، الأول ينتمي إلى تاريخ العلم والآخر ينتمي إلى تاريخ الفلسفة، وكلاهما كتب بطريقة متناسبة مع عبقريته.

الفصل الثاني عشر

القرنان السادس عشر والسابع عشر: ألمانيا

لا نهضة

الأصالة العظيمة لألمانيا من ناحية الموقف الأدبي - وربما من ناحية المواقف الأخرى أيضاً - أنه ليس فيها نهضة، فلا اتصال، وكل الأحداث مغلقة، مع أصول قديمة كلاسيكية. مزاجها ولا شك عدائي؛ فالإصلاح، أي التبني الجارف للمسيحية الصافية البدائية المحافظة والموجهة ضد الأصول القديمة وثنية كانت أم فلسفية لتضاف إلى النفور. على أي حال تبقى الحقيقة: لم يتمتع الألمان بنهضة.

لوثر

أيضاً في القرن السادس عشر في ألمانيا، كما في فرنسا في القرن الرابع عشر، كان هناك شعر شعبي فقط، وكل النثر بالألمانية وكله إصلاحي وأخلاقي وليس فيه سوى صدى للقديم، وعملياً لم يكن هناك صدى للقديم. لوثر، مترجم **الكتاب المقدس** إلى اللغة العامية، في مقدماته لكل سفر من أسفار **الكتاب** وفي كتاباته السجالية (**البابوية وأعضاؤها - البابوية أقامها الشيطان في روما** الخ) قدم في كتابه **مواعظ ورسائل** للفكر التيوتوني اتجاهاً استمر طويلاً، وقدم تماسكاً للنثر التيوتوني وصفاء ورزانة وقوة مارست تأثيرها على العقول البشرية.

الإصلاحيون

يلي لوثر زوينغلي *Zwingli* وهوتن *Hutten* وأبرلنغ *Eberling* وميلانشتون *Melanchthon* (ولكن باللغة اللا تينية) وإراسموس *Erasmus* (معظم كتاباته باللاتينية وأحياناً بالفرنسية) فنشروا المبدأ الجديد أو العقائد التي تعود له.

إراسموس - ألبرت دورير - غوتشيد

لا بد أن نضع استثناءاً على إراسموس فيما لاحظناه من قبل. بعقل لا قيود له، وفي معارضة للوثر كما لروما، وأيضاً الاندفاع للهجوم على الإنسانيين الخلص الذين اتخذوا الأسلوب الشيشروني، كان إراسموس إنسانياً، وتلميذاً متحمساً للآداب القديمة، بحيث أنه وضع قدماً في النهضة وقدماً في الإصلاح، وامتلك إلى جانب ذلك عقلاً أصيلاً جداً وكان يشكل كل مظهر من مظاهر "الحداثة العليا".

لا بد من الإشارة أيضاً إلى ألبرت دورير *Albert Dürer*: الرياضي والمهندس المعماري والرسام ومع ذلك ينتمي إلى موضوعنا بسبب كتابه **أربعة كتب في التناسب الإنساني** حيث يظهر، بأسلوب عذب ودقة، إذ هو نفسه ليس أقل من أنه أقدم مؤسس لعلم الجمال التيوتوني.

القرن السابع عشر - الممتد كما هو متفق عليه حتى حقل *1730* - هو حصراً عصر التأثير الفرنسي وقليل، إن شئت، من التأثير الإيطالي. وحافظ الناقد غوتشيد *Gottsched* (**النقد الفني ـ القواعد ـ الفصاحة**) على تفوق الأدب الفرنسي وضرورة استلهامه بإيمان راسخ حلى درجة أنه جرّ عليه الحقد من الجيل التالي.

ليبنتز

لم يهتم الشعر الألماني في عصره، الذي لا يملك الأصالة ولا القوة، إلا بواسعي الاطلاع والباحثين. ميدان النثر أكثر جذباً. كتب ليبنتز *Leibnitz* باللاتينية والفرنسية، وحتى بالألمانية، وهو المفكر العظيم الذي تمنى أن يكون؛ ولكن مع أنه لم يمتلك ولم يدع أنه يمتلك أصالة في الأسلوب، فقد قدّر لصفائه وشفافيته وسهولة لغته.

الفصل الثالث عشر

القرنان السادس عشر والسابع عشر: إيطاليا

القرن السادس عشر

امتلكت إيطاليا، بعد دانتي وبترارك القوة الأدبية والكثير من المجد الأدبي في القرن السادس عشر. أنتجت كوكبة من الشعراء وكتاب النثر من الجدارة العليا. فهناك أريوستو *Ariosto* وتاسو *Tasso* وبيرني *Berni* وسانازارو *Sannazaro* ومكيافيلي *Machiavelli* وباندیلو *Bandello* وغيشياردیني *Guicciardini*. دونهم كان هناك مئات الكتاب نشير من بينهم إلى أريتينو *Aretino* وفولينغو *Folengo* وبيمبو *Bembo* وبالدي *Baldi* وتانسيلو *Tansillo* ودولشي *Dolce* وبنفينوتو سليني *Benvenuto Cellini* وهانيبال كارو *Hannibal Caro* وغاريني *Guarini*.

أريوستو

كتب أريوستو **أورلاندو غاضباً** التي ليست ملحمة في التقليد الساخر كما شاع عنها بمقدار ما هي ملحمة شعبية مستهترة ومرحة لأورلاندو وأصحابه. الشخصيات الأساسية هي أورلاندو *Orlando* وشارلمان ورينود *Renaud* وأغرامانت *Agramant* وفيراغوس *Ferragus* وأنجيليكا *Angelica* وبرادامانت *Bradamante* ومارفيسا *Marphisa*. واللهجة متنوعة جداً والمؤلف بدوره مرح وساخر ومشجن وكئيب وحتى تراجيدي. أريوستو هو الشاعر الأفضل للخيال الوهمي المختلط مع أساس الشعور الطيب والعقل والنزعة إلى الخير. وقال عنه غوته *Goethe* كلاماً محقاً جداً: "من غيمة من الحكمة الذهبية تبرق الجمل الرفيعة أحياناً، بينما في

العزف المنسجم تبدو الحماقة متمردة في استطرادات متوحشة مع أنها كلها تحتفظ بالمقياس الكامل". كان أريوستو مقروءاً جداً في الكلاسيكيات، ولكن من حيث الأساس كان هومر أستاذه.

تاسو

كتب توركواتو تاسو *Torquato Tasso* الذي اتسمت حياته بألف محنة وكان ضحية مرض عقلي لمدة طويلة، قصيدة طويلة عن الحملة الصليبية لغودفري دي بويلون *Godfrey de Bouillon*. القصيدة مليئة بكل ما هو فوق الطبيعي؛ والشخصيات الرئيسية هي رينود *Renaud* وتانكريد *Tancred* والمغنية أرميدا *Armida* وكلورياندا *Clorinda*. إلهام تاسو يعتمد على الصوفية والغنائية؛ وسهولة الوصف عنده سهولة عذبة. إن سمعة **تحرير أورشليم** في القرن السابع عشر كبيرة، ولكن آداب أوروبا أشارت إشارات لا تحصى إلى شخصيات القصيدة وموضوعاتها. هناك تحزبات شديدة في إيطاليا حول عظمة تاسو على أريوستو أو أريوستو على تاسو، وصراعات كثيرة حول الموضوع، وأعظم صراع حدث، كما يقع دائماً، كان بين طرفين لم يقرأ الملحمة أي منهما.

بيرني

كان بيرني *Berni* مثل أريوستو نصف ساخر في الأقسام المسلية من أعماله. كتب الهجائيات التي كانت في معظمها سامة، ومفارقاته من أمثال مدح الطاعون والجوع وأورلاندو العاشق مقبولة تماماً. والأسلوب البيرني، أي الخفيف الظل خلقه هو فحمل اسمه.

سانازارو

كتب سانازارو باللاتينية والإيطالية. شهرته الرئيسية المزعومة تكمن في أركاديا *Arcadia* وهي قصيدة رعوية بعاطفة ريفية، قدر أن يكون لها آلاف المقلدين. كما أنتج أيضاً قصائد رعوية وسوناتات بالإيطالية وفرت له أساسات كافية لاعتباره أحد أسياد اللغة الرئيسيين.

مكيافيلي

مفكر عظيم وسياسي عظيم وفيلسوف أخلاقي عظيم، وقد امتلك مكيافيلي عقلاً من أعظم العقول القوية المعروفة حتى الآن. كتب **الأمير** - **خطابات عن ليفيوس** - **فن الحرب** - رسائل وتقارير دبلوماسية، لأنه كان ذات مرة أحد أمناء الجمهورية الفلورنسية - **تاريخ فلورنسا** - كوميديا **اللفاح** - رومانسات وحكايات. **الأمير** أطروحة عن فن حيازة السلطة والاحتفاظ بها عن طريق كل الوسائل الممكنة والعملية وبالأخص الجريمة الذكية والحذرة. أكد مكيافيلي على الشقاق، النسبي حيناً والمطلق حيناً آخر، وهو ما يوجد بين السياسيين والأخلاقيين. كتابه **خطابات حول ليفيوس** مليء بالحس والذكاء والعمق؛ ومؤلفاته الخفيفة تظهر مهارة متفردة للفكر المتحد بالفظاظة الأساسية التي يستحيل أن نسيء فهمها أو نعذرها.

باندیلو

باندیلو مؤلف روايات في سياق الروايات التي كتبها بوكاشيو أو برانتومي *Brantôme*. إرادته أو عفويته تتكون أساساً في الحكايات الفاجرة المختلطة بأحكام وأقوال مأثورة معظمها متزمت وأخلاقي. وكتب أيضاً الأناشيد الرثائية التي قدرت تقديراً عالياً. أسلوبه النقي جداً اعتبر في إيطالياً كلاسيكياً تماماً.

غيشياردیني

كتب غيشيار ديني بأناة مطلقة واجتهاد شديد، وبفتور رابط الجأش في أسلوب نقي مع أنه مرتبك أحياناً، فكتابه **تاريخ فلورنسا**، وهو تاريخ إيطاليا فعلياً، اعتبر من ظهوره الأول مؤلفاً كلاسيكياً واستمر كذلك. وكتابه كتاب رجل دولة، فقد مرت حياته بين القضايا الشعبية البارزة، لكونه حاكم مودينا وبارما وبولونيا، ودبلوماسياً متورطاً في أهم المفاوضات؛ وهذا المؤرخ بحد ذاته شخصية تاريخية.

فولينغو

كتب فولينغو قصيدة مختلطة الكلمات: أي كلمة لاتينية مختلطة بكلمة إيطالية، سماها **كوكاشوس** *Coccacius* (التي يجب أن نتذكرها لأننا عندما نترجمها إلى الفرنسية تصبح أقدم نمط لرابليه) وكذلك قصيدته المسلية **أورلاندينى** (طفولة أورلاندو). مؤلفاته الأخرى الجادة لا تحظى باعتبار جاد.

أريتينو

كان أريتينو هجائياً وشاعراً فاسقاً بالأصل وظل نمط الشاعر السيئ السمعة. كتب كوميديا (**المومس - المارشال - الفيلسوف - المنافق**) ورسائل عاطفية هامة جداً لدراسة عادات زمنه، وكتباً ثقافية، طافحة بالموهبة إن لم تكن طافحة بالإخلاص، وكذلك كمية لا تحصى من الهجائيات والكراريس والتقارير والخطب اللاذعة التي جعلت كل أمراء زمنه يرتجفون، ومن خلال جعلهم يرتجفون استقدمت أيضاً الذهب إلى صناديق أريتينو؛ فقد رفع الابتزاز إلى أعلى فرع أدبي.

بيمبو - بالدي

الكاردينال بيمبو، شيشروني متحمس إلى حد التعصب، كتب الكثير وبخاصة في اللاتينية ولكنه ترك قصائد إيطالية ذات روعة وسحر؛ يصنف بين أعظم ممثلي النهضة الإيطالية المشهورين.

بالدي باحث متوسع جداً بالشعر، تسلى من ثقافته الموسوعية بكتابة **رعويات** و**قصائد أخلاقية** وقصيدة تعليمية غريبة **الملاحة**.

تانسيلو - دولشي

تانسيلو شاعر خصب جداً، أنشأ قصيدة متحللة بعنوان **قاطفة العنب** وقصيدة دينية بعنوان **دموع القديس بطرس** (التي ظنها الفتى ماليرب جميلة فترجم أجزاء منها) و**النبي الفلاح** و**المربية** بينما من ناحية أخرى أظهر نفسه تلميذاً لتاسو فكتب الكوميديا والدراما الريفية الخ.

دولشي، الذي لا يقل خصباً أنتتج خمس قصائد ملحمية أعظمها **طفولة أورلاندو**، وكثير من الكوميديات، معظمها تقليد لبلاوتوس، وكتب تراجيديات متبعاً فيها يوريبيدس وسينيكا، ثم واحدة يبدو أنها أصيلة وحققت شهرة بعنوان **ماريامنا** *Mariamna*، قلدها الفرنسيون. كان أيضاً مترجماً لا يكلّ لهوراس وشيشرون وفيلوستراتس *Philostrates* الخ.

بنفينوتو سيليني

ينتمي النحات والمثال العظيم بينفينوتو سيليني إلى التاريخ الأدبي لأن كتابه **أطروحة عن الحدادة والنحت** وكتابه المدهش الآخر **مذكرات**، هما في قسم منهما خياليان، ولكنهما عمل أدبي من الطراز الأول.

هانيبال كارو - غواريني

هنيبال كارو في ديوانه **قصائد**، وفي كتابه **رسائل** وفي نقده الأدبي وفي مسرحيته الكوميدية **الشحادون** وفي ترجمته الشعرية لـ **الإنياذة** حقق مرتبة عليا من التقدير في إيطاليا وأوروبا.

غواريني، صديق تاسو، الذي ساعده في مراجعة **تحرير القدس** وتصحيحها، أثبت أنه تلميذ تاسو من دون ريب. كتب تاسو قصيدة رعوية هي **أمينتا** *Aminta* فكتب غواريني قصيدة رعوية هي **الراعي المخلص** التي كانت إحدى أعظم المنجزات الأدبية المعروفة على الإطلاق. كانت نوعاً من الدراما المختلطة بالغناء والرقص، كثيرة التنوع، شعرية ومشجية أحياناً بطريقة لا نكهة فيها. كل الرعويات، سواء في فرنسا أو أيطاليا، وفيما بعد الأوبرا نفسها، تابعت خطوات غواريني، أو على الأقل تذوق الريفيات الذي قد يكون نشأ من مسرحيات غواريني. كان رجلاً واسع التأثير ليس فقط في الأدب بل في السلوك والعادات والأخلاق.

انحطاط الأدب

في القرن السابع عشر كان الأدب في حالة انحطاط من دون شك. ففي الشعر بصورة خاصة، بل أيضاً في النثر، كانت مرحلة طاقة من دون عمق بل حتى من دون أساس، مرحلة فصاحة وحشو أو سخرية ولكن من دون قوة ولا فكر ولا عاطفة. وعمل ماريني *Marini* كثيراً على **أدونيس** وهي ملحمة ميثولوجية أصيلة، وأحياناً مشرقة ولكن أيضاً عرجاء وأحياناً مليئة بنقاط الضعف، بل أيضاً بالتوافه، وكما كان عظيم السمعة في إيطاليا ربما تجاوزها إلى فرنسا، حيث رحبت به وتملقته ماري دي ميديتشي *Marie de' Medici* (زوجة ملك فرنسا هنري الرابع) وأغرق في مديحه فواتير *Voiture* وبلزاك وسكودري *Scudéry* الخ.

سلفادور روسا - تاسوني - مافي

قلما كرس الرسام الكبير سلفادور روسا *Salvator Rosa* نفسه للأدب؛ ترك لنا قصائد غنائية وبشكل خاص الهجائيات التي تنقصها الروح، مع أنها في الأغلب خالية من الذوق. وكان تاسوني *Tassoni* المتناقض هجائياً فسخر من بترارك، وربما كان في كتابه **أفكار**، قبل روسو بمدة طويلة، أول (من يعرف؟) من أعلن أن الأدب مؤذ جداً للمجتمع والإنسانية، والذي حقق شهرة بكتابه **اغتصاب الدلو**: أي قصيدة ساخرة حول الخصام بين أهل بولونيا *Bolognese* وسكان مودينا *Modena* حول دلو.

مافي *Maffei* (ربما دخل في القرن الثامن عشر) باحث جيد ومؤرخ محترم، أنتج في عام 1714 مسرحيته **ميروبي** *Merope* التي كانت تراجيديا رائعة، واشتهر كما اشتهر فولتير.

مؤرخون ونقاد

ليس في النثر من نشير إليه في القرن الثامن عشر في إيطاليا سوى المؤرخين والنقاد. لا بد أن نشير من بين المؤرخين إلى دافيلا *Davila* الذي قضى صباه في فرنسا بالقرب من كاترين دي ميديتشي *Catherine de' Medici* يخدم في الجيش الفرنسي، ولدى عودته إلى بادوا *Padua* كرس نفسه في شيخوخته للتاريخ. كتب **تاريخ الحروب الأهلية في فرنسا** الذي قدر تقديراً كبيراً، والذي ذكره فينيلون في كتابه **رسالل حول نشاط الأكاديمية الفرنسية**. ولا بد من الإشارة إلى المذكورين أعلاه كظواهر بارزة في النشاط الأدبي في إيطاليا أثناء القرن السابع عشر، ولكن يجب ألا ننسى أن النشاط العلمي لتلك الفترة كان رائعاً وأنه كان قرن غاليليو *Galileo* وتورشيلي *Torricelli* وأربعة من أسرة كاسيني *Cassini* وكذلك الكثير من آخرين مدحهم فونتينيل *Fontenelle* بحق في **مدائح المثقفين**.

الفصل الرابع عشر

القرنان السادس عشر والسابع عشر: أسبانيا والبرتغال

الشعر: كويفيدو - غونغورا

القرن السادس عشر والنصف الأول على الأقل من القرن السابع عشر كان العصر الذهبي لكل من الأدبين الأسباني والبرتغالي. في الشعر أول من نميز كويفيدو *Quevedo* كما أنه مميز في النثر أيضاً. ولد في مدريد واضطر بسبب حماقات صباه أن يلجأ إلى صقلية ثم يعود إلى أسبانيا في قمة حظه بالقرب من الدوق أوليفاريس *Olivares* أو أنه لوحق وسجن وعذب على يد ذلك الوزير، وامتلك السهولة والعنف بامتياز كبير. قصائده الهجائية في معظمها كشفت عن توهج وعذوبة تميز بهما.

غونغورا *Gongora* الذي يشبه ليلي *Lyly* في إنكلترا وماريني في إيطاليا، تمتع بشهرة تأسيس مدرسة سيئة. إنها مدرسة الغونغورية *Gongorism*: أي فن الكتابة الذي لا يجعل المرء يفهم ما يقرأ، لا يناسب إلا المحامين والخطباء والنقاد والعلماء، وإنما فن الكتابة الذي يجعل الفكرة لا تكتشف إلا بعد جهد جهيد، أو حتى يحول دون اكتشافها على الإطلاق. وتنتمي الغونغورية إلى أي مرحلة، وفي كل مرحلة تكون وسيلة لإبعاد الجماهير، والحصول على حفنة من المعجبين المتحمسين، والتمكين من احتقار حق تصويت الجماهير. وقد وجد غونغورا في كل من أسبانيا وفرنسا معجبين متحمسين ومقلدين.

لوب دي فيغا

كان لوب دي فيغا *Lope de Vega* أحد أعظم شعراء العالم، مع أنه لم يكن واضحاً. خصب الإنتاج للغاية، من دون أن يكون هناك مستوى وسط، فنشر بعض الرومانسات في النثر **دوروتيا أركاديا** وبعض الروايات والقصائد الملحمية أو التاريخية: **سيرسي** *Circe* - **رعاة بيت لحم** - **غزو القدس** - **جمال أنجيليكا** - **الحاج في دياره** - **الوردة البيضاء** - **التاج المأساوي** - وبطلتها ماري ستيوارت *Mary Stuart* - **إكليل غار أبوللو** الخ) وقصائد ساخرة وهجائية، وقصائد درامية وصل عددها إلى أكثر من ثمانمائة. وفي هذه الكتلة من الإنتاج يمكن أن نجد كوميديا السلوك وكوميديا المكيدة والكوميدياالرعوية والكوميديا التاريخية (التي اشتهرت أسماء شخصياتها في التاريخ) وتراجيديا كلاسيكية ودينية، وكوميديا ميثولوجية وفلسفية وكوميديا القديسين. وعلى الرغم من هذا التمايز، الذي يفيد كدليل في هذا الحشد، فإن كل أعمال لوب دي فيغا الدرامية هي تلك التي من الخيال الذي يبدو أنه لا يدين إلا بالقليل للملاحظة والذي تكمن قيمته في الابتكار والإنشاء البارع، والخصب والتنوع الساحرين للأفكار الموجودين في التفاصيل. وعمل لوب دي فيغا الدرامي (الذي لم ينشر بعد بكامله والذي لا يحتمل أبداً أن ينشر بكامله) كان منجماً ضخماً ومحل خصام ليس فقط من طرف المؤلفين الدراميين بل أيضاً من طرف كل كتاب الرومانسة والرواية في أوروبا. هذا المنتج المكثر الذي كتب ملايين الأشعار هو هومر أسبانيا والأكثر خصباً من هومر، ولكنه هومر الذي لا يشك أحد في وجوده.

أركيلا

خلق ألونسو دي أركيلا *Alonso de Ercilla* أنواعاً خاصة، وهي تلك القصائد الملحمية لكاتب مذكرات. كان رجلاً مهتماً بالأحداث الهامة، يلتقط يومياً الملاحظات وبعد ذلك، أو حتى أثناء ذلك، يضعها في شعر. وهكذا وضع

أركيلا قصيدته **أروكانا** *Araucana*: أي قصيدة الحملة ضد الأروكانيين في تشيلي *Chili* أو بالأحرى كتب الجزء الأول (والأعظم) من ثلاثة أجزاء؛ فيما بعد رغب أن يرتفع إلى القمم الملحمية، فاتجه إلى الزينة المبتكرة والتقليدية لهذا النمط من العمل فصار مضجراً، من دون أن يفقد كل مهارته. وفي جملة تظهر المغالاة فيها قال فولتير: "هذه القصيدة أكثر وحشية من الأمم التي تشكل موضوعها". **أروكانا** متوحشة متناغمة في جزئها الأول وليست ضارية ومنسقة تنسيقاً حضارياً في البقية ولكن من دون أن تكون تافهة.

مندوزا

لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار هورتادو دي مندوزا *Hurtado de Mendoza* - المتكبر والغامض والميال إلى القتال والوزير الأعلى لشارل الخامس - لأنه كان أقدم كتاب رومانسة البيكاريسك (الكدية) *picaresque*. وتكوّنت طريقة البيكاريسك في حدود عادات المنبوذين والبوهيميين والمتسولين والمحتالين والجوالين. وقد استمرت ثلاثة أرباع القرن. وإلى هذه الطبقة تنتمي **غوزار دي ألفاغر** التي كتبها ماتيو أليمان *Mateo Aleman* و**ماركو دي أوبريغون** التي كتبها اسبينيل *Espinel* و**الشيطان على خازوقين** التي كتبها غويفارا *Guevara* وفي فرنسا إلى حد ما **جيل بلاس** التي كتبها لوساج *Le Sage*. وحتى الآن تعتبر **لازاريلو تورميس** لهورتادو دي مندوزا النمط الأولي المحتذى.

غويفارا

ولا بد من لحظة التفات إلى الكاتب الظريف أنتونيو دي غويفارا *Antonio de Guevara* الأخلاقي المتملق الذي بالرغم من أن **رسائل عادية** و**قرص الأمراء** كئيبتان فإنهما تتضمنان مقاطع هامة توصي المؤلف بالقراء. وهو أكثر فائدة للفرنسيين إذ منه استعار لافونتين كتابه **مواطنو الدانوب**، وقد عزاه إلى ماركوس أورليوس (مما أدى إلى كثير من التشويش) لأن الشخصية الأساسية في **قرص الأمراء** هي ماركوس أورليوس الذي قصد عمداً الملك شارل الخامس.

وبالرغم مما كتبه تين *Taine* مع أن نقده كان دقيقاً حتى بالتفاصيل، فإن لافونتين اتبع عن كثب الكلمات الأصلية الفخمة والجميلة لغويفارا.

الرومانسة

كانت الرومانسة الأسبانية في ذروتها في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كانت تملك فيلقاً من المؤلفين، ولكن هنا لا يمكن الإشارة إلا إلى الأساسيين فقط. كتب مونتيمايور *Montemayor* الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر وانتهى إلى وجود مجازف، **ديانا في الحب**، التي أصبحت مشهورة في كل البلدان تحت عنوان **ديانا مونتيمايور**. إنها رومانسة ميثولوجية رعوية سحرية، ينقصها النظام ولكونها خيالية فإنها تكون غامضة في بعض الأحيان وفي بعض الأحيان لطيفة مؤثرة جذابة ومشجية، ودائماً تسخر من الرومانتيكي. درجت موضتها في أسبانيا وإيطاليا. وتنطلق منها رومانسة **أستريا** *Astrea* التي كتبها أونوريه دي أورفي *Honoré d'Urfé* في جزء منها ولكنها أكثر حساسية وأكثر كبحاً.

كويفيدو

نجد كويفيدو هنا مرة ثانية، والآن باعتباره كاتباً ناثراً وليس الناثر هنا أسوأ من الشاعر هناك. كان غزيراً في الرومانسة والتخيلات الساخرة، وفي أحلام اليقظة الاجتماعية لم يبخل بها مجتمع معاصر وأوحى بها ريعان الصبا. أخيراً يبذل كل طاقته، التي كانت كبيرة، في رومانسته الكبرى **دون بابلو دي سيغوفيا** *Don Pablo of Segovia* التي وصفت من عشرين سنة سابقة بأنها طبيعية. من الواضح أن كويفيدو كان مراقباً، امتلك قدرة اختراق نفسية، أو على الأقل حكمة الأخلاقي؛ ولكن قبل كل شيء كان خياله أصيلاً جاداً، فابتكر على أساس حقيقي واضح مغامرات كانت في معظمها محتملة ومتنوعة وساخرة أو امتلك نكهة مريرة. كان عقله أحد العقول الأصيلة في أسبانيا التي كانت وافرة في الأصالة العقلية.

سرفانتس

قال مونتسكيو عن الأسبانيين: "إن لديهم كتاباً جيداً واحداً فقط، الكتاب الذي يسخر من كل الآخرين". لا شيء أكثر ذكاء ولا أكثر ظلماً من هذا؛ ولكن الحقيقة أن أعظم كتاب أسباني هو الذي يسخر فيه المؤلف من الكثير من الكتب الأسبانية الأخرى. كتب سيرفانتس *Cervantes* **دون كيشوت** *Don Quixote* ليسخر من رومانسات الفروسية التي كانت في بلاده هوساً بين أهل المدن والإقطاعيين الأرستقراطيين القلة، ولكن كتب من دون روح العداء حتى أنه احتفظ بها لبطله المضحك، أي لضحيته، عاطفة مكتومة جعل قارئه يشاركه فيها. وهو نفسه بطل من أبطال الفروسية، ومحارب بشجاعة لا تقهر، جرح ثلاثة جروح في معركة ليبانتو *Lepanto* حيث فقد إحدى ذراعيه، وأسر سبع سنوات عند الجزائريين، وفي عودته إلى أسبانيا تورط في مغامرات أودعته السجن مرة أخرى قبل أن ينجح أخيراً، إن لم يكن بالمصادفة، مع **دون كيشوت**. إن دون كيشوت رومانسة واقعية نفذها مثالي مسعور: هنا سلوك العامة، وأصحاب الخانات والبغالين وعمال المراكب والرهبان والتجار الصغار والفلاحين وفي وسطهم يمر رجل يرى العالم بكامله باعتباره رومانسة ويؤمن أنه يجد رومانسة في كل منعطف طريق. هذا التناقص أولاً فعّال وفني جداً في حد ذاته، ثم إنه واقع يتفوق على أي واقعية، منذ أن اكتملت حياة البشرية التي رسمت وجرى النفوذ إلى أساساتها وعرضت في كل مظاهرها. هناك جانبان لهذه الرومانسة، وهما دائماً متقاربان، إن صح التعبير، ومتداخلان؛ وهما الموضوعات والمحادثات. فالموضوعات أحداث كوميدية ومغامرات مزاجية أو عاطفية من النوع الطفولي وتعرض خيالاً لا يصدق؛ والمحادثات بين دون كيشوت والمخلص سانشو *Sancho* تمثل اتجاهين في العقل البشري للتمييز من جهة الخير والكرم والإخلاص وروح التضحية والأوهام؛ ومن جهة أخرى، الحس العام وحس الواقع وحس الوسيلة العادلة، وإن جاز التعبير العقل المصاغ بالأمثال، من دون خبث أو مرارة. هذه القطعة الرائعة ربما هي التي ابتكرت صفة "ما لا ينضب".

إلى جانب رومانسته الخالدة، كتب سرفانتس الروايات والرومانسات والسوناتات وأيضاً حاول الدراما، فلم ينجح. العالم بكامله فتن بـ دون كيشوت وعلى الرغم من تغير الذوق، لا تزال تثير إعجاب كل من قرأها.

الدراما: فرديناند دي روياس

كانت الدراما، بالإضافة إلى لوب دي فيغا، الذي كتبنا عنه، أعظم إشراقاً في أسبانيا خلال هذين القرنين. كان المسرح الأسباني متميزاً جداً وأصيلاً جداً بين كل الدراما، أكثر من الدراما القديمة وأكثر من مسرحيات شكسبير نفسه، كان غنائياً في أساسه، أو بتعبير أكثر وضوحاً، كان قائماً على خليط مستمر من الغنائية والدرامية؛ كان يشدد دائماً على العاطفة والإحساس بالشرف، إنه "مركز الشرف" كما كان يطلق عليه، وعلى قوانينه التي كانت صارمة وطاغية بل قاسية. هاتان السمتان الأساسيتان (الغنائية والدرامية) منحتاه مظهراً مميزاً يختلف عن كل المسارح الأوروبية الأخرى. ومن دون العودة خلفاً إلى الأصول المشوشة ومن دون التعبير عن الأهمية الكبيرة في الدراما الأسبانية حتى الدراما الدينية المسماة فصل الأسرار *autos sacramentales* (التي استمرت سيرورتها حتى القرن السابع عشر) من الضروري أولاً أن نشير، في نهاية القرن الخامس عشر، إلى **سيلستين** *Celestine* لـ فرديناند دي روياس *Ferdinand de Rojas* كعمل روحي لا مثيل له، ضخم وغير منتظم، فحيناً فاجر جداً وحيناً يصل إلى قمة التمجيد الأخلاقي، وأحياناً أيضاً هزلي وفي أحيان أخرى يثير الشجن بعمق. ترجمت **سيلستين** مرات عديدة إلى لغات مختلفة، وبالأخص في إيطاليا وفرنسا وقدرت بمقدار ما قدرت في أسبانيا.

كالديرون

في القرن السابع عشر (بعد لوب دي فيغا) جاء كالديرون *Calderon* وهو منتج مثل لوب، ألف على الأقل أكثر من مائتي مسرحية، وبعض الباحثين يقولون إنه كتب ألف مسرحية، فكان المبدع المكثر أولاً، ثم إنه كان عقائدياً

أخلاقياً أقرب إل الواعظ. في مسرحياته الدينية، وفي دراما الحب، وفي تراجيديا القبعة والسيف، حتى في الكوميديا والمكائد المعقدة الكبرى كانت العواطف الكبرى للروح الأسبانية - الشرف والإيمان وحرمة القسم والولاء والثقة وروح المغامرات الكبرى - واسعة وحية ورفيعة في كل أعماله. عند كالديرون تدل العناوين دائماً على الموضوع. أشهر مسرحياته: **كل ما هو زائف وحقيقي في هذه الحياة - الحياة حلم - الكرازة للصليب - السيدة أمام الجميع - محافظ زاماليا - الحب بعد الموت - الطبيب وذمته**.

ألاركون

ألاركون *Alarcon* أقرب إلينا بسبب إنشائه المنتظم والكلاسيكي. على أي حال كان رجل خيال ومزاج مع قوة درامية كافية. لا بد من الإشارة إلى تراجيدياته: **الأجدر يكلف أكثر - القسوة في الشرف - سيد النجوم**. وكوميدياته: **تجربة الأزواج** والمسرحية الساحرة **الشك في الحقيقة**، التي أخذ منها كورنيل مسرحيته **الكذاب**.

تيرسو دي مولينا

كان تيرسو دي مولينا مكثراً آخر في الأدب الدرامي، ويؤكد أبناء جلدته أنه كتب ثلاثمائة دراما، يوجد منها خمس وستون. كل الدراميين الأسبان غير منتظمين، وهو بصورة خاصة؛ فقد عبَر من الفظاظة إلى الرفعة بسهولة مفاجئة ويسيرة. كان يبتهج بشكل خاص للمكيدة المعقدة الذكية، وللمفاجآت واللمسات المسرحية غير المتوقعة. على أي حال **مدان تحت الشك** نوع من الملحمة الأخلاقية، كيّفها للمسرح، تمتلك جمالاً حقيقياً وليست من دون عمق أبداً. وأشهر دراما له، تلك التي قلدت بشكل مباشر أو غير مباشر، وتعود إلى النمط الذي كان أول من طرحه هي دراماً **مهرج أشبيلية**: أي **دون جوان** *Don Juan*. كل الآداب الأوروبية التي استغلت دون جوان صارت روافد لتيرسو دي مولينا.

فرنسيس دي روياس - كاسترو - ديامانتي

فرنسيس دي روياس *Francis de Rojas* الذي يجب ألا يختلط بفرديناند دي روياس مؤلف **سيلستين**، مع أنه أقل نشاطاً من سابقيه، إلا أنه شاعر درامي مميز. وقد سرق منه فرنسيو القرن السابع عشر بكل حرية. وقد سرق توماس كورنيل قسماً كبيراً من مسرحيته **برنارد دي سيغارال** وسرق سكارون قسماً كبيراً من مسرحيته **جوديليت**، وسرق لوساج موضوع **جيل بلاس**. وإذا كان هذا يتعلق بالدراما الفرنسية، فلا بد من أن نذكر وليم دي كاسترو *William de Castro* وديامانتي *Diamante*. كتب وليم دي كاسترو مسرحية **مآثر السيد في صباه**، التي عرف بها كورنيل فقلدها في تراجيديته الشهيرة **السيد** بعد أن أضاف جمالاً لا يقارن. ديامانتي بدوره قلد كورنيل تقليداً شديداً في **الابن المنتقم لأبيه**. وقد أخطأ فولتير في التاريخ فاعتقد أن كورنيل قلد ديامانتي.

كتاب البرتغال

كان القرن السادس عشر في البرتغال العصر الذهبي. كان الدراميون والمؤرخون والأخلاقيون كثيرون جداً؛ العديد منهم أصحاب عبقرية والكثير منهم أظهر موهبة عظيمة. من بين الشعراء الغنائيين كان برناردين ريبيرو *Bernardin Ribeiro* - كرستوفال فالكام *Christoval Falcam* - ديوغو برناريديس *Diogo Bernardes* - أندرادي كامينا *Andrade Caminha* - ألفاريز دو أريانتي *Alvarez do Oriente* - رودريغويز لوبو *Rodriguez Lobo*. كتب ريبيرو الرعويات نصفها سردي أو حواري ونصفها غنائي. كما أنه أنتج أيضاً رومانسة اهتمت بالحكايات (هكذا كتب لوساج في **جيل بلاس**، كما هو معروف، وفي هذا فقط قلد الأسبانيين) بعنوان **الفتاة البريئة** برهنت على رقة متناهية.

كان كرستوفال فالكام رعوياً، لكن رعوياته تصل إلى تسعمائة بيت. كما كتب أيضاً **فولتاس** وهي قصائد غنائية ملائمة للتلحين الموسيقي. كما كتب ديوغو برناريديس رعويات ورسائل جمعت تحت عنوان **ليما** *Lyma*. وليما هو

النهر. وما عناه ليما عند برناردیس هو ما كان يعنيه لغنون *Lignon* عند دي أورفي في **أستريا**.

وامتلك كومينا، وهو شاعر بلاط يشبه تماماً الفرنسي سانت جيليه *Saint-Gelais* أسلوباً لغوياً بارعاً وجذلاً. وكانت الرعويات والرثائيات والقبريات والرسائل الشغل الشاغل لعروس شعره.

ألفاريز دو أوريانتي ترك عملاً رومانتيكياً عظيماً، يتقاسمه الشعر والنثر بعنوان **تحوّل البرتغال** فكان وصفياً إلى جانب قصائده الرعوية والغنائية.

وكان لوبو كثير الإنتاج. فهو مؤلف رومانسات رعوية، مناصفة بين الشعر والنثر: **الراعي الغريب - الربيع - الخلاص من السحر**، وقصيدة ملحمية عظيمة **المحكمة في القرية** بأسلوب المحادثات العادية حول مسائل أخلاقية وأدبية ظلت كلاسيكية في البرتغال، كما كتب رومانسات ورعويات.

شعراء الملاحم

أبرز شعراء الملاحم هم كورتي ريال *Corte-Real* - مانزينو *Manzinho* - بيريرا دي كاسترو *Pereira de Castro* - فرنسيسكو دي ساميزيس *Francisco de Saa e Menezès* - دونا دي لا لاسيردا *Doña de la Lacerda*، وأخيراً كامونس *Camoens* العظيم. كورتي ريال كاتب الموهبة العليا، كان مؤلف ملحمة سنصنفها رومانسة في الشعر، مع أنها مؤسسة على الوقائع، على **سفينة سيبلفيدا المحطمة** وزوجها ليانور. السرد المتنوع والتصويري محزن. وكانت أفضل، بالنسبة إلينا على الأقل، لو لم يكن هناك تدخل مستمر للمعبودات الوثنية.

فرنسيسكو دي ساميزيس غنّى مدينة ألبوكويركي في **ألبوكويركي** *Albuquerque* و**غزو مالقا**. خلط قصص الحب والقصص الرومانتيكية مع سرد أخبار المعارك ووصفها. امتلك الإحساس باللون المحلي والخيال المشرق؛ اتهم بالإهمال المفرط فيما يتعلق بالتصحيح.

دونا دي لا لاسيردا أستاذة الأدب اللاتيني لأطفال فيليب الثالث، مع أنها ولدت في بورتو *Porto* كتبت تقريبا بالأسبانية دائماً. عملها الرئيسي هو **تحرير أسبانيا** وهي قصيدة شعرية؛ كما أنها ألفت الكوميديات وقصائد مختلفة في الأسبانية. ولم تكتب بالنثر البرتغالي إلا نادراً.

كامونس

مجد أولئك الشعراء الراسخين محاه مجد كامونس. نفي في صباه الباكر لسبب يماثل سبب معاقبة أوفيد، جندي فقد عينه في سبتة *Ceuta* وطاف في الهند وتحطمت سفينته، وبحسب الرواية لم يسلم سوى قصيدته التي كان يرفعها بيد بينما يسبح بالأخرى، وعاد إلى البرتغال بعد ست عشرة سنة في المنفى، فساهم في نضال بلاده وانحطاطها واستعبادها، وتوفي (*1579*) في اللحظة التي لم يعد للبرتغال وجود سياسي. كتب **لوسياد** *Lusiad* (أي البرتغاليون) وهي تاريخ فاسكو دي غاما *Vasco da Gama* وحملته إلى الهند. وصف أفريقيا ورأس العواصف (رأس الرجال الصالح) والعملاق أداماستون *Adamaston* الذي يعترض الممر، ووصف الهند، وهذا هو أساس السرد. موضوعات سردها أفراد، كما فعل فرجيل وكما في الرومانسة الأسبانية، فشكل ملحقاً داخلياً، وبهذه الطريقة سرد كل تاريخ البرتغال، وهكذا شكل حب إينيز دي كاسترو *Inez de Castro* ودون بيدرو *Don Pedro* جزءاً من قصة فاسكو دي غاما. كان كامونس قاصاً قوياً، وخطيباً رائعاً في الشعر، وفوق كل شيء رساماً عظيماً جداً. أظهر ذوقاً غريباً، حتى إذا قورن بمعاصريه، من أمثال مزجه المعبودات الميثولوجية مع الحقائق المسيحية: مثلاً الصلاة التي رفعها فاسكو دي غاما إلى يسوع المسيح رفعت إلى فينوس *Venus*. ويلاحظ أيضاً أن القصيدة تنقصها الوحدة فهي ليست سوى قصائد متعاقبة. ولكن كما قال فولتير "سرد التفاصيل، بالمتعة التي تحملها يمكن أن يعوض عن البقية؛ وذلك ما يثبت أن العمل كامل في جماله العظيم، ما دام منذ مائتي سنة شكل بهجة للعرق الذكي الذي لا بد أن ينتبه إلى أخطائه".

الدراميون

الـدراميون البرتغـاليون الأساسـيون هـم سـا دي ميرانـدا *Saa de Miranda* أنطونيـو فيريـرا *Antonio Ferreira* جيـل فيسـنتي *Gil Vicente*. سـا دي ميرانـدا شاعر فلسفي أو بتعبير أكثر دقة شـاعر صـاحب أفكـار؛ انفصـل عـن الرعويـات والزراعيات الخالدة لسابقيه من دون أن ينحط إلى التزود بالأمثلة الرائعة، بل رمى إلى نشدانها في مكـان آخـر وأعلـى ممـا سـبق. كـذلك أصـلح نظـم الشـعر وأدخـل الأوزان المسـتخدمة في اللغـات الأخـرى، ولكـن حتـى الآن لم تسـتخدم في لغتـه. كتـب الأناشـيد والرسـائل علـى طريقـة هـوراس والسـوناتات والقصـائد الغنائيـة باللاتينية والمؤلفات الملحمية. في كل أجزاء عمله يمكن أن يقارن برونسار. أخيراً كتب كوميديتين بالنثر: **الغرباء** و**الجنود الأسبان** (الذين احتلوا مركزاً بارزاً في الكوميديا). كـان واحداً مـن أعظـم العقـول التـي اختزنـت الأدب الكلاسـيكي والتي أنتجتها البرتغال.

فيريرا

فيريرا الـذي كتـب قصـائد غنائيـة وقصـائد رثائيـة وبـالأخص رسـائل، جلبـت لنفسه اسم هوراس البرتغالي، كان درامياً صورة خاصة. أبدع **فاركـاس** *Farcas* التي يجب ألا نعتبرها مجموعة مهازل، بل قصائد دراميـة يتـداخل فيهـا الـديني مـع الدنيوي؛ وكتب **البرستو** *Bristo* وهي كوميديا شعبية؛ و**الغيور**، التي ربما كانت أقدم كوميـديا للشخصـية أنتجتهـا أوروبـا، وأخيراً تراجيـديا **إينيـز دي كاسـترو** التراجيديا الوطنية وهي تراجيـديا أرثوذكسـية منظمـة في شـكل أن المؤلـف شـعر أنه مضطر إلى إدخـال جوقـة علـى الطريقـة الكلاسـيكية. إنهـا مشـحونة بـالحزن ومعالجة بكثير من الفن.

جيل فيسنتي

جيل فيسنتي شاعر مكثر كتب اثنتين وأربعين قطعة درامية، ثلثاها بالأسبانية والبقية بالبرتغالية، فمس كل فرغ من فروع الأدب المسرحي؛ وكتب مسرحيات دينية *autos* وتراجيديات ودراما رومانتيكية ومهازل. أعماله الرئيسية هي **كاسندرا السيبيلية - الأرملة - أماديس دي غول - معبد أبوللو - قارب الجحيم**. تمتلك كوميدياته حيوية أقرب إلى الإيطاليين من البرتغاليين. يروى أن إراسموس تعلم البرتغالية فقط من أجل قراءة كوميديات جيل فيسنتي.

الفصل الخامس عشر

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: فرنسا

فونتينيل

القرن الثامن عشر، الذي أعلنه، وأعلنه بدقة كبيرة لابرويـر دشنه عدوه فونتينيل. وفونتينيل ابن أخ كورنيل، بدأ بتوافه سخيفة وريفيات وأوبرات وتراجيديات طنانة ورسائل شاب غندور، بحيث يمكن اعتباره فواتوراً *Voiture* متخلفاً. بسرعة، ولأنه يمتلك عاطفة القرن الثامن عشر نحو العلم والفكر الحر، أظهر أنه رجل جاد، ولأنه كان ذكياً فقد أظهر نفسه رجلاً جاداً ممتعاً، وهذا نادر. عمله **محاورات الموتى** فكاهية جداً، وفي الوقت نفسه وفي مقاطع كثيرة نجدها عميقة؛ وكتب **مناقشات حول تكاثر العالم**؛ ثم لأنه كان السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم، أنتج عمله المدهش والساحر **مدائح الحكماء** التي لا بد أن يعتبر أوسع تاريخ للعلم في القرن السابع عشر وفي الثامن عشر حتى *1740*.

بايه

بايه *Bayle*، فرنسي عاش في هولندا من أجل الدين، هو صحافي ومؤلف معجمي أثبت في كتابه **أخبار من جمهورية الأدب** وفي **المعجم** المكثف سعة معلوماته في المسائل الأرضية وبخاصة الفلسفية والدينية، يرشد قراءه إلى الريبية المطلقة. بايه وفونتينيل رسولان افتتحا موكب القرن الثامن عشر. لا بد الآن بعدهما من اختبار الشعراء أولاً ثم كتاب النثر في النصف الأول من ذلك العصر.

لاموت

كان لاموت *La Motte* المشهور في زمنه والمنسي في زمننا، غنائياً وكاتب فابيولات *fabulist* وخطيباً درامياً وملحمياً وإن اتبع أسلوباً معيناً. كتب الأناشيد التي كانت باردة جداً، والحكايات التي كانت ذكية تماماً ولكنها متصنعة ومرهقة، أما الكوميديات فمتوسطة منها **العاشق الظريف** وهي أشهرها وتراجيديا **إينيز دي كاسترو** التي كانت ممتازة وحققت أعظم نجاح في المسرح الفرنسي. وأخيراً بات متحزباً للحداثيين ضد الكلاسيكيين، فلخص **الإلياذة** لهومر في اثني عشر فصلاً تافهاً مثل قصائده الغنائية. لديه أفكار متناقضة في الأدب، ولكونه شاعراً أو يؤمن بنفسه أنه شاعر، اعتبر أن الشعر يستهلك التفكير وأن العواطف وحدها يجب أن تكتب نثراً. وضد هذين الاتجاهين ظهرت ردة فعل فولتير.

ج.ب. روسو - بومبينان

إلى جانب لاموت، لكونه أكثر موهبة كشاعر، كان جان بابتيست روسو *Jean Baptiste Rousseau* جلياً. كتب القصائد الغنائية التي كانت باردة كغنائيات ولكنها مركبة بشكل جيد، وأحياناً على الأقل، فيها درجة معينة من الفصاحة. من ماليرب حتى لامرتين كان الشعر الغنائي قد هجره شعراء فرنسا هجراناً كلياً تقريباً، أو على الأقل قلما عولج. جان بابتيست روسو كان متفرداً تقريباً وزهاء قرن اعتبر أعظم شاعر غنائي وطني.

تحمل لو فرانس دي بومبينان *Le Franc de Pompignan* الكثير من السخرية، ليس أقلها كونه متكبراً ساذجاً الملحوظ في عبوره من الجنوب إلى شمال فرنسا؛ بل له بعض المعرفة؛ فقد كان مطلعاً على العبرية وهو إنجاز نادر، وكان طالباً مواظباً على الأدب الكلاسيكي. تراجيديته **ديدو** *Dido* أعقبتها مسرحية **الأغاني المقدسة** حظيتا بشعبية بغض النظر عما قاله فولتير، وحافظتا على نجاحهما؛ وفي أناشيده، التي في الغالب كانت باردة، قلما حظي بنجاح - بيد أنه حقق نجاحاً فقط في نشيده في رثاء جان بابتيست روسو.

الهنرياد

أما كشعراء، إن أردنا الدقة، فإن السابقين أشرنا إليهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر عدا قصيدة **هنرياد** *Henriade* فولتير الحاذقة والباردة.

شعراء الدراما

بالنسبة إلى الجهة المقابلة فإن الشعراء الدراميين كثيرون وليسوا من دون مزية. فلنتذكر **إينيز دي كاسترو** التي كتبها دي لاموت. كامبسترون *Campistron*، التلميذ الهزيل لراسين (علاوة عن أن ليس هناك تلميذ لراسين كما كان هذا الأخير، مما جعل عبقريته تشارك عقله) كتب العديد من التراجيديات والأوبرات التي تمتعت بنجاح حصلت عليه كل الأعمال التقليدية: أي نجاح لم يثر أي مناقشة، ويبدو اليوم ذروة التفاهة.

كريبيون

يليه كريبيون *Crébillon* القوي الحيوي العنيف الذي يهز الأعصاب، سيد الخوف والرعب لا تنقصه المشابهة بشكسبير، ولكن من دون رقة أو عمق، فلم يقدم حتى فكرة تشير أنه بسيكولوجي أو أخلاقي، وكتب بسوء واستحق إلى حد ما الصفة التي أطلقها عليه فولتير "البربري".

كان الأخير مفتوناً بالدراما، يتحسس جمال موضوعاتها وطروحاتها الجديدة والأصيلة فيكيفها لتصلح للمسرح بشهية جارفة، بالإضافة إلى سروره بعظمته وتقليده وزينته، مما جعل التراجيديا تميل إلى الأوبرا، التي لم تكن في أيامه شيئاً رديئاً، ولكنه ضعيف في التنفيذ، لا يبع شخصيات لأنه غير قادر على التخلص من نفسه، كمهدئ في علم النفس والأخلاق مثل كريبيون نفسه ويضع مكان تحليل العاطفة الملاحظات المبتذلة النفسية. تخلى عن الدراما التراجيدية التي نالت نجاحاً حتى عام *1815*، ولكنها بعد ذلك سقطت في التجاهل الذي لم يكن فيه أدنى احتمال في أنها ستظهر أبداً.

شعراء الكوميديا

شعراء الكوميديا في هذه الفترة كانوا مقبولين جداً. أبرزهم دستوشيه *Destouches* - رينارد *Regnard* - لاشوسيه *La Chaussée*. كان دستوشيه النمط الفعلي للكتاب الكوميديين في القرن الثامن عشر وقد أشرنا إليه من قبل، وهو من أخذ صورة لابروير وحولها إلى كوميديا وهذا ما كان يدعى كوميديا الشخصية. وبناء على هذا كتب **الثرثار** - **المتردد** - **ناكر الجميل** - **النمام** - **المبذر** الخ. أحياناً يبذل جهداً كبيراً لتكون الشخصية أتفه من الأصل كما في **أغنيس المزيفة** - **الفيلسوف المتزوج**، وأحياناً يستعير موضوعاً من أحد الآداب الأجنبية ويكيّفه للمسرح الفرنسي بمهارة وإتقان، كما في **الفضولي الوقح** المأخوذ من **دون كيشوت** و**طبول الليل** المستعار من مؤلف إنكليزي. كان نظمه الشعر بارعاً وصحيحاً ولكن من دون ميزات أخرى.

رينارد

كان رينارد على العكس من ذلك عبقرياً أصيلاً، مع أنه في الغالب يقلد موليير. امتلك الروح الكوميدية والفرح والحيوية والإحساس بالهزلي، وقدرة كبيرة على الشعر الهزلي بمرونة عظيمة وسهولة لا تصدق، كان متفوقاً في الشكل على بوالو وحتى على موليير، لأنه يوحي بـ سكارون الذي أكمله موليير نفسه والشعراء الإيطاليون. ولا تزال أعماله الخالدة حية أمثال **المقامر** و**الوريث العالمي** و**العودة المفاجئة**.

الدراما: لاشوسيه

امتلك لاشوسيه أرومة من الرواية الشعبية والمسلسلات، وفي الوقت نفسه تذوقاً للمسرح. والنتيجة أنه خلق أنواعاً جديدة هي في حد ذاتها إنجاز غير قليل. خلق الدراما: أي خلق مسرحاً يقدم الشعب العام وليس الملوك والأمراء، المتأثرين بسوء حظهم. وهذا ما استدعى كل ما يمكن من الأسماء؛ فعندما تكون هناك

كوميديا فإنها توصف بأنها كوميديا دامعة؛ وعندما تكون هناك تراجيديا فإنها تكون تراجيديا درامية. هذه هي الدراما التي عرفناها في فرنسا لقرن ونصف القرن؛ مثل كورنيل الذي تنبأ بكل شيء، وشارك وتكهن في مقدمته لمسرحية **دون سانشو**: "أفضل أن أقول يا سيدي إن التراجيديا يجب أن تثير الشفقة والخوف، وذلك موجود في أساساتها، ما دامت هناك ضرورة لتعريفها. فإن كان هذا صحيحاً بأن الشعور الأخير يثار فينا فقط عندما نرى أولئك الذين يشبهوننا يتالمون، وأن حظهم السيئ وضعنا في خوف من مصائب مشبهة، أليس صحيحاً أننا يمكن أن نكون متأثرين أكثر بالكوارث التي تصل إلى أناس من مستوانا، ويشبهوننا، أكثر مما نتأثر بصورة إطاحة الملوك العظماء عن عروشهم، وهم لا علاقة لهم بنا سوى بمقدار ما نتحسس العواطف التي تسيطر عليهم، التي ليست هي حالتنا دائماً؟" هذه التراجيديا المحلية كتبها لاشوسيه شعراً، وهي ليست ضد القواعد الفرنسية وقد مارسها كتاب الدراما مائة وعشرين سنة بعد ذلك؛ وربما يكون خطأ، إذ ليس هناك مماثلة بأن المواطنين يعبرون عن أنفسهم بالوزن أكثر من الملوك والأبطال الذين يتكلمون بوقار تزينه أوزان الشعر. وهكذا كتب **التعصب الأنيق** - **مدرسة الأصدقاء** - **ميلانيد**، الشجية جداً - **مدرسة الأمهات** الخ. ولا بد من أن أقول إنه كتب مسرحياته شعراً بصورة نظامية إلى حد ما؛ وجعل ظهوره الأول في الأدب عن طريق دفاع عن نظم الشعر ضد مبادئ لاموت.

بيرون

بحسب النظام القديم ولكن في الشعر الأصيل، بعد أن لقي بيرون *Piron* نجاحاً ضئيلاً كتب **جنون العظمة** *Metromania* الجيدة مع مسرحية لوساج **توركاريه** ومسرحية غريسيه *Gresset* **الشرير** وروائع ماريفو *Marivaux* والمسرحيتان الكوميديتان لبومارشيه *Beaumarchais* صنفت من بين أعظم كوميديات سبع أو ثمان أنتجها القرن الثامن عشر.

كتاب النثر الكبار: مونتسكيو

في النثر كان هناك وفرة كتاب، بل كتاب كبار في هذه المرحلة. وقد ظهر بعد فونتينيل وباييه مباشرة مونتسكيو الحاد والماكر والهجاء والعميق في **الرسائل الفارسية** وظهر فيلسوفاً سياسياً عظيماً وأستاذاً في القانون في **روح القوانين**، ومؤرخاً فلسفياً عظيماً في **نبل الرومان وانحلالهم**. تأثير مونتسكيو على فولتير، بغض النظر عما قاله الأخير؛ وعلى روسو، وإن صمت الأخير عن هذا التأثير، وعلى مابلي *Mably*، وعلى رينال *Raynal*، وعلى الموسوعيين وعلى القسم الضخم من رجال الثورة الفرنسية، وعلى كبار عقول القرن التاسع عشر، كان تأثيراً عميقاً ويصعب قياسه. وككاتب يعتبر دقيقاً شاملاً ملفتاً للنظر، يبحث عن الدافع وفي الأغلب يجده، ويبحث عن الصيغة وبثبات يجدها - إنه تاسيتوس وقد اختلط بسالوست.

لوساج - سان سيمون

فيما يخص لوساج وسان سيمون *Saint-Simon* لا يفكر المرء غريزياً بأن أحداً منهما روائي وكاتب رومانسة عظيم. فكل منهما كتب في الزمن ذاته مثل مونتسكيو. سان سيمون سرد عصر لويس الرابع عشر كشاهد عيان، وكلاهما روحاً وشعوراً بالتصوير كانا لا يضاهيان، يعبران بشكل مجسد جداً، لا يكون في الغالب صحيحاً، ودائماً قوي وحيوي وبارع. لوساج في أرقى الأساليب الفرنسية، التي من أنقى القرن السابع عشر، سرد قصصاً أسبانية اختلطت فيها الملاحظات التي وضعها في باريس، وأقام نمطه من أجل الرواية الواقعية في **جيل بلاس** المدهشة. أما كمسرحي فسوف نعالجه فيما بعد.

ماريفو - بريفو

حاول ماريفو أيضاً الرواية الواقعية في روايته الغريبة جداً **ماريان** المليئة بالأنماط المأخوذة من الحياة المعاصرة وأخذت بفن كان أقل كثافة من فن لابروير ولكنه كان دقيقاً مثله، وفي **الفلاح المنحرف** بفن أكثر جفافاً ولكن لا يزال كبير الفائدة.

الأب بريفو *Abbé Prévost* المتخلف كثيراً والمغالي في التقريظ، لا نكهة له في روايات المغامرة، ولكنه وجد مرة موضوعاً جيداً في **مانون ليسكو** *Manon Lescaut* ومع أن كتابته سيئة كعادته، فقد أثار الدموع التي ربما لا تزال تتدفق.

التاريخ - الدراما

في التاريخ أسس فولتير نمطاً حيوياً سريعاً بسرد ملحمي حقيقي في **تاريخ شارل الثاني عشر** وقدم مثالاً على الأقل للتوثيق الدقيق وللتاريخ المعاصر الذي يدرس بغيرة وعاطفة في **رسائل فلسفية حول إنكلترا**. وفي المسرح هناك كوميديات لطيفة لاذعة لـ دانكورت *Dancourt* - دي بروي *Dancourt* – بالابرا *Palaprat* – دوفرنسي *Dufresny* ، ثم الدراما اللطيفة التي تجمع الخيال والمنظور الحسي والرومانتيكية والبسيكولوجية لماريفو الذي في **التراث** - **الثقة الكاذبة** - **الاختبار** - **لعبة الحب والعار** أظهر أنه لا يقل عن وريث راسين وأنه الوحيد الذي تملكه فرنسا.

فولتير

سيطر فولتير على القسم الثاني من القرن الثامن عشر. فكتب في الدراسات التاريخية **قرن لويس الرابع عشر** والفلسفة **المعجم الفلسفي** والدراما **زئير** - **ميروبي** - **ألزير** [قبل عام *1750*] **إنقاذ روما** - **اليتيم الصيني** - **تانكريد** - **غوبيري** - **سكيثيا** - **إيريني** وكتب الكوميديا **نانين** - **المتحشمة** والرومانسة **قصص وروايات** والطروحات التشريعية (**قضايا كالاس** *Calas* و**لابار** *Labarre* و**سيرفن** *Sirven*) ومقالات وكراسات وأوراق لاجئ حول كل الموضوعات التي يمكن تصورها.

الفلاسفة

إلا أننا وصلنا إلى الجيل الثاني من الفلاسفة الآن. فهناك ديدرو *Diderot* كاتب الرومانسة الفلسفية **الراهبة** - **جيمس القدري** والناقد الفني في كتابه **صالونات** والمتعدد الموضوعات (جمعت في الموسوعة) وهناك جان جاك روسو

الروائي الفلسفي في **هيلوئيز الجديدة** والصحافي في أطروحته **ضد الأدب والفنون وأصل التفاوت** والمربي في **إميليوس** والأخلاقي المتشدد في **رسائل إلى دالامبرت والنظارة**، وشبه كاتب الرومانسة، الساحر العاطفي في السيرة الذاتية التي سماها **الاعترافات**، وهناك دوكلوس *Duclos* الهام وإن كان مدجناً كما في كتابه **تفكير في أخلاق هذا القرن**، وهناك كوندياك *Condillac* الدقيق والنظامي والمنضبط ولكنه الواضح في أعظم أسلوب في كتابه **أطروحة حول الأحاسيس**؛ وأخيراً هناك تورغو *Turgot* الاقتصادي الفلسفي في كتابه **أطروحة حول تشكيل وتوزيع الثروة**.

بوفون - مارمونتيل - ديليل

ملأت الفلسفة، وهي التأمل في القضايا الكبرى، كل الأفق الأدبي، بينما قدم الأدب العلمي مجموعة من الممثلين المشهورين، أهمهم إثارة للإعجاب بوفون *Buffon* في كتابه **التاريخ الطبيعي**. إلا أنه في الأدب المطلق هناك أيضاً أسماء نشير إليها: مارمونتيل *Marmontel* في كتابه **حكايات أخلاقية** وكتابه **بيليساريوس** وكتابه **الإنكا** وفي كتابه **عناصر الأدب**.

ديليل *Delille* في ترجمته شعراً **رعويات** فرجيل افتتح سيرة شعرية نبيلة توبعت حتى القرن التاسع عشر؛ وكتب جلبرت *Gilbert* بعض الهجائيات اللاذعة التي ذكرت ببوالو وبعض الذين ودعوا الحياة الذين كان من بينهم أعظم الغنائيين؛ فقد صدح سانت لامبرت *Saint Lambert* بـ **الفصول** بسهولته الجذلة وروشير *Roucher* عالج الموضوع ذاته بكثير من الحساسية الفياضة.

المسرح

قبل عام *1750* بقليل قدم غريسيه *Gresset* مسرحيته **الرجل الشرير** التي كانت مسرحية ذكية بأوزان موفقة حملت تقليد الكوميديا الشعرية؛ واتبع ديدرو طريقة لاشوسيه *La Chaussée* وأنتج **رب العائلة - الابن الطبيعي - صالح أم طالح؟** راسماً صورته نفسه. وقدم ميرسيه *Mercier* أعداداً لا تحصى من

الدراما، واتبعه الكثيرون بمن فيهم بومارشيه الذي كرس نفسه للدراما، ولكنه تمكن أن ينجح في الكوميديا فقدم مسرحيتيه **حلاق أشبيلية** و**زواج فيغارو**.

أندريه شينييه

على تخوم الثورة تقريباً ظهر بصوة غير متوقعة شاعر عظيم هو أندريه شينييه *André Chénier* الموهوب بصورة عجيبة في كل شيء. كشاعر عشق ذكرنا بكاتولوس وتيبولوس؛ وكشاعر سياسي أوحى إلينا بـ دو بيني *d'Aubigny*، مع حماسة مشبوبة، وكشاعر رثاء امتلك موهبة تشبه الموهبة اليونانية حقاً؛ وكشاعر طبيعة استخدم طريقة لوكريتيوس الواسعة؛ وفي النثر السجالي كان فصيحاً مرموقاً. انتهى وهو في ريعان الشباب وسط تيار الثورة، وترك لنا تراثاً من قطع خالدة.

برناردين دي سان بيير

في النثر كان معاصره برناردين دي سان بيير *Bernardin de Saint-Pierre* صاحب عبقرية، منذ أن كتب تلك الرومانسة الغنائية الخالدة **بول وفرجينيا**؛ ثم أصبح تلميذاً مخلصاً وأميناً لجان جاك روسو، لإعجابه بحب الطبيعة في **هرمونيا الطبيعة**؛ وأخيراً حظي بأهمية في التاريخ الأدبي باعتباره مبدع الأدب الغرائبي من خلال الأوصاف التي كتبها عن بلدان كثيرة: آسيا والجزر الأفريقية التي اجتازها ودرسها، وروسيا وألمانيا.

الخطباء الثوريون

أثناء الفترة الثورية يمكن أن نشير إلى خطباء كبار في الجمعية الوطنية: ميرابو *Mirabeau* – بارناف *Barnave* – دانتون *Danton* – فيرنياد *Vergniaud* - روبسبيير *Robespierre* والمؤلفين المنحوسين للأناشيد الوطنية: ماري جوزيف شينييه *Marie Joseph Chénier* ومؤلف نشيد **المارسيليز**، روجيه دي ليل *Rouget*

de Lisle الذي لم ينجح إلا يوم كتبه. وهكذا نكون وصلنا إلى القرن التاسع عشر.

القرن التاسع عشر

في مستهل قرن كان مشرقاً من الناحية الأدبية طغى جيمس ديليل: جهوده المبكرة مشهودة. ناظم ماهر، ولكنه من دون حماسة أو أفكار كثيرة، قام بترجمات ثقافية من فرجيل وملتون، وكتب على سنوات قصائد وصفية مثل **الرجل في الحقول** - **الحدائق** الخ. وكتب قصيدة هجائية ذكية بعنوان **محادثة**، هي في رأينا أعظم ما كتب.

شعراء كبار: لامرتين

ظهر شعراء كبار. نهضوا من دون شك بسبب العبقرية الشعرية لكاتب النثر شاتوبريان، والجيل الأول للرومانتيكيين الذي تشكل من لامرتين - فكتور هيغو - ألفريد دي فيني *Alfred de Vigny*. وكانت الرومانتيكية تغلب الخيال والحساسية على العقل والملاحظة. وأعاد لامرتين تعميد الشعر في مصادره القديمة والأبدية: العشق والدين وحب الطبيعة. في كتابه **تأملات** وفي كتابه **تناسقات** وفي كتابه **أفكار** أيقظ المشاعر التي كانت نائمة وأثار بعمق قلوب الناس. في **جوسلين** *Jocelyn* وسع مجاله، وخرج من ذاته فسرد، حسبما تخيل، قصة روح الكاهن أثناء الثورة، وبالتالي في غموض الأبرشية الريفية؛ في **سقوط ملاك** تحول إلى حياة الإنسان البدائي كما فهمه عندما كانت البشرية لا تزال في البربرية. وإلى جانب أعماله الشعرية كتب **تاريخ الجيروندیين** الذي يعتبر التاريخ الرومانتيكي لكل الثورة، وكتب بعض الروايات وبعض الموضوعات في السيرة الذاتية وبضعة خطابات حول الأدب.

فكتور هيغو

مع أن فكتور هيغو أقل حساسية من لامرتين إلا أنه أخصب خيالاً، بدأ بالقصائد الغنائية التي كانت إلى حد ما ذكرى الطريقة الكلاسيكية، ثم انطلق يصور الشرق، ثم تأمل ماذا حدث له نفسه، وفي كل الموضوعات (**أوراق الخريف - أنوار وظلال**) ثم بعد أن امتلك عبقريته فعالج التأملات الفلسفية الكبرى في كتابه **تأملات** وفي **أسطورة الدهور** فقدم تلك القطعة الملحمية التي هي صورة للتاريخ. كان خياله من أعظم الأخيلة القوية التي شهدها العالم، كما أنه مبتكر أسلوب، فجعل أسلوباً لنفسه بكل رؤاه وألوانه، وأيضاً جعل هناك ميلوديا ونغمة أوركسترية. ومع أن أحد مصادره تنقصه في النثر، فقد استغل الباقي استغلالاً رائعاً، فـ **أحدب نوتردام** و**البؤساء** عملان يثيران الإعجاب، على الأقل في أجزاء منهما. فيما بعد سنعود إلى معالجته باعتباره كاتب دراما.

ألفريد دي فيني

كان ألفريد دي فيني أكثر فلسفة من أولئك الشعراء الكبار، مع أنه متخلف عن الاثنين الآخرين في الخيال الإبداعي. فكر بعمق في وجود الشر على الأرض، وفي سوء حظ الإنسان، وكآبة الحياة، ومعظم أغانيه اليائسة، التي كانت أيضاً أعظم جمالاً، تركت صدى عميقاً في قلوب معاصريه. بعض قصائده مثل **الزجاجة في البحر - منزل الراعي - غضب شمشون**، تعتبر من أرقى أعمال الأدب الفرنسي.

موسيه - ثيوفيل غوتييه

الجيل الثاني للرومانتيكية الذي ظهر في عام *1830* يشمل ألفريد دي موسيه *Alfred de Musset* وثيوفيل غوتييه *Théophile Gautier* كممثلين رئيسيين. يحملان شبها متبادلاً، إن صح القول، فالأول يعرف فقط كيف يغني عن نفسه ومسراته وأوهامه وغضبه وقبل كل شيء عن أحزانه، دائماً بعمق وبلهجة ساحرة

وأحياناً ممزقة؛ والثاني فنان متفوق، دائماً يبحث عن السطحي الجميل والمسرّ ليعيد إنتاجه كما لو كان رساماً أو نحاتاً أو موسيقياً، فكان بارعاً ممتازاً في "انتقالات الفن" سواء في النثر أو الشعر.

كتاب النثر: شاتوبريان

كتاب النثر الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا شعراء بكل تأكيد، كما كان من قبل جان جاك روسو وحتى بوفون. وكان يسيطر على قدراتهم الخيال والحساسية وحب الطبيعة. كان شاتوبريان مؤسس كل الحركة الأدبية في القرن التاسع عشر، في النثر كما في الشعر. كان منظراً أدبياً وشاعراً ملحمياً في النثر، ورحالة ومجادلاً وخطيباً. نظريته الأدبية الكبرى كانت في **عبقرية المسيحية**، وتتلخص في أن كل جمال شعري حقيقي يكمن في المسيحية. قصائده الملحمية في النثر هي **هنود الناتشي** *Natchez* صورة لعادات هنود أمريكا، و**الشهداء**، بانوراما لصراع الوثنية في أواخرها وبداية المسيحية؛ وعن رحلاته **رحلة إلى أمريكا** و**الطواف من باريس إلى أورشليم**. عضو جمعيات برلمانية وسفير ووزير، كتب وتكلم بطريقة مشرقة مؤثرة وعاطفية عن موضوعات جمعها. أخيراً تراجع إلى نفسه، كما أنه لم يتوقف عن فعل ذلك طيلة حياته تقريباً، فترك كتابه البديع الغريب **ذكريات من خلف الضريح** المنشور بعد وفاته والذي ربما اعتبر تحفة أعماله. أسلوبه المتنوع المطواع اللين شكل معجزة فنية دائمة، فهو أسلوب منسجم وموسيقي أكثر حتى من أسلوب جان جاك روسو.

مدام دي ستايل

في الوقت نفسه مدام دي ستايل *Mme. de Staël* وإن توفيت قبله بزمن طويل بروايتيها الجادتين الهامتين **الدلفين** *Delphine* و**كورين** *Corinne* وإن لم يؤثرا، وبأطروحاتها حول موضوعات مختلفة وجدية، وبعملها في ألمانيا، الذي بدأته بالفرنسية في عادات وآداب الجوار الذين لم يطلعوا عليه بصورة جيدة، وجهت

عقول الناس إلى طرق جديدة، وكانت منتجة جداً لأفكار مستعارة في معظمها، ولكنها مفهومة جداً، ومحترمة بعمق، أكسبتها مظهراً من الأصالة حتى في نظر أولئك الذين قدموها لها.

المؤرخون

حتى مؤرخو هذا النصف الأول من القرن كانوا شعراء: أوغسطين تييري *Augustin Thierry*، الذي أعاد علمياً ولكن عن طريق التخيل بناء **العصر الميروفنجي**؛ وميشليه *Michelet* تلميذ فيكو *Vico* الذي رأى في التاريخ تطور قصيدة مكثفة وأضفى على رصده العصور الوسطى حماسة وحيوية من خياله المتحمس وحساسيته المترددة. ويمكن أن ننحي غيزو *Guizot* وتيير *Thiers* جانباً، لأنهما رجلا دولة في الثقافة مع أنهما مقتدران عاطفياً، سعى الأول إلى التعميم العقلي و"التاريخ المنضبط" كما يقال، والآخر سعى منفرداً إلى حصار الوقائع بدقة ووضعها بصورة صافية بطريقة منظمة.

الفلاسفة

لم ينج الفلاسفة من هذه العدوى، وإن كان كوزان *Cousin* ومدرسته الانتقائية أحبوا أن يلحقوا أنفسهم بالقرن السابع عشر فكراً وأسلوباً، فإن لامينيس *Lamennais* أولاً في **مقالة في اللامبالاة** ثم في **دراسة في الفلسفة** وفي **كلمات مؤمن**، يبدو ملتهباً ومتهوراً ومحموماً، اجتاز تأثير الرومانتيكية، ولكنه أيضاً قدم للرومانتيكيين القسم الأعظم من الأفكار التي وضعوها في أشعار.

الرواية

أما بالنسبة إلى الرواية فكان من الطبيعي أنها لا بد أن تكون أعمق تأثراً بروح المدرسة الجديدة. فكتبت جورج صاند *George Sand* الروايات الغنائية، إن صح استخدام هذا التعبير - وأظنه التعبير الدقيق هنا - بعناوين: **إنديانا** - **فالنتين** - **موبرات** - و**ليليا** بشكل خاص. لكنها بعد ذلك راحت تنقل الحكمة.

وحدث أن ولد عقل ليرى الواقع بطريقة دقيقة باهرة، رآه بسبب الزمن، أو على الأقل يعزى ذلك جزئياً إلى الزمن، رافقه خيال رائع ولكنه مشوه وغطاه بجنون العظمة؛ كانت هذه هي حالة أونوريه دي بلزاك *Honoré de Balzac*.

الأدب غير الرومانتيكي

على أي حال كان من الطبيعي، كالعادة، أن يكون هناك خلال كل المرحلة الرومانتيكية أدب كامل لم يخضع لتأثيرها، وبكل بساطة تمسك بتقليد القرن الثامن عشر. ففي الشعر كان هناك بيروجيه *Béranger* الذكي والماهر والجليل جداً، الذي كانت أغانيه في معظمها دائماً أغاني رائعة وأحياناً أناشيدا؛ وظهر أيضاً كاسيمير ديلافيني *Casimir Delavigne* المقتدر والبارع ولكنه صارم. وفي النثر ظهر بنيامين كونستانت *Benjamin Constant* الخطيب المفوّه جداً والمثقف جداً، أيضاً الفيلسوف الديني في كتابه حول الدين، والروائي في روايته المدهشة **أدولف** *Adolphus* التي كانت شبه سيرة ذاتية.

كما كان كلاسيكياً أيضاً جوزيف ميستر *Joseph de Maistre* وفي الرواية ميريميه *Mérimée* الدقيق الواضح المثقف؛ وأخيراً في النقد ظهر سانت بيف *Sainte-Beuve* الذي بدأ فعلاً بأن يكون المنظر والمستشار الأدبي للرومانتيكية، ولكنه تحرر من تعويذتها بسرعة، تقريباً من عام *1830* وصار مؤلف **بورت رويال** *Port Royal*. ومع أنه امتلك عقلاً واسعاً وحساساً لأنه كان مثقفاً ثقافة شخصية، فقد كان كلاسيكياً صارماً في اختياراته، وأحياناً في أفكاره وحتى في أسلوبه.

وامتلك ستندال *Stendhal* النتاج الصافي للقرن الثامن عشر، وحتى المبالغ في روح ذلك القرن في جفاف روحه وأسلوبه، والكتابة المادية الخالصة مع ضبط وصراحة طبيعية مقصودة، مواهب نفيسة في الملاحظة وفي روايته الشهيرة **أحمر وأسود**، وفي الجزء الأول من روايته **قلعة بارما** وفي **ذكريات سائح** عرف كيف يرسم الشخصيات بدقة ورزانة وقوة، وأن يجعلها بوضع مريح بحيث باتت نادرة جداً.

المسرح

كانت الدراما متألقة جداً خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكان الصراع محتدماً لمدة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة بين الكلاسيكيين والرومانتيكيين، الكلاسيكيون يدافعون عن قلعتهم، والمسرح الفرنسي كان الأكثر بروزاً في مشاحناتهم الكلامية على صفحات الجرائد أكثر من المؤلفات غير الهامة التي قدموها على خشبة مسرح كوميدي فرانسيه *Comédie française* بينما قدم الرومانتيكيون هنا كل دراما فكتور هيغو (**هرناني - ماريون دي لورم - روي بلاس - اللصوص** الخ) ومؤلفات دي فيني (**عطيل - مارشال المرساة**) وكذلك دراما دوماس (**هنري الثالث وبلاطه** الخ). بين المدرستين، وكان الطرفان كلاهما على المسرح أقرب إلى الحديث من القديم، وقدم كاسيمير ديلافيني البارع، بنجاح منقطع النظير **مارينو فاليرو - لويس الحادي عشر - أطفال إدوارد - دون جوان النمسا - الأميرة أوريليا** التي كانت لطيفة جداً ولكن من دون رغبة ملتهية.

درامي عبقري حقيقي، وإن كان خالياً من الأسلوب، من تصعيد الفكر والأفكار، ولكنه بناء مكثف من المسرحيات المتقنة هو يوجين سكريب *Eugène Scribe* الذي بدراماه وكوميدياته، وكذلك النص الكلامي للأوبرات، كان المزود الرئيسي للمسرح الفرنسي بين *1830 - 1860*.

الرومانتيكية والواقعية

وصلت الأمور إلى درجة أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر انقسم بين الرومانتيكية الضعيفة ولكنها المثابرة والواقعية. ثيوفيل غوتييه في *1853* قدم **طلاء وأحجار كريمة** أعظم عمل شعري له، وفيما بعد (*1862*) قدم **الضابط فراكاس**. وكتب هيغو روايته **البؤساء** والحلقتان الثانية والثالثة من **أسطورة الدهور - أغاني الشوارع - الغابات** الخ.

جيل رومانتيكي ثالث كان ممثله الأشهر تيودور دي بانفيل *Théodore de Banville* الذي تقدم على غوتييه أكثر من هيغو ومن دي موسيه، ودفع باللفظ والإيقاع إلى حدهما الأقصى وربما بعده. وعندئذ ظهر الشعراء الكبار أو المميزون.

الشعراء المشهورون

ليكونت دي ليل *Leconte de Lisle* شاعر فلسفي شده الأدب الهندي والتشاؤمية واستطابة العدمية، والتعطش إلى الموت، ففرض الإعجاب بالشكل البارز والإيقاع الجليل؛ وسوللي برودوم *Sully-Prudhomme* فيلسوف آخر، وبالأخص في الرثاء الغنائي النفسي والمتنوع مع كثير من الفن وقبل كل شيء انصهاره بالكآبة والحزن والحساسية العميقة التي سوف توقظ التأثر والاهتمام والاحترام لكاتولوس وتيبولس ولوكريتيوس؛ وفرانسيس كوبيه *Francis Coppée* شاعر الفرح والأحزان المتواضع يتقن النظم أيضاً، وقد امتلك حساسية غير منحازو بحيث يجعل القارئ ينسى أن هناك فناً فيه؛ وبودلير *Baudelaire* المفتش عن النادر وأحياناً عن الأحاسيس المصطنعة، ويمتلك أسلوباً منهكاً، ولكنه أحياناً مؤهل لإنتاج انطباع عميق إما أن يكون مريضاً أو حزيناً، احترمته مدرسة بكاملها لا تزال تضم أعظم الشعراء داخل الإطار العام للأدب الفرنسي؛ والشاعر فرلين *Verlaine* المتفاوت جداً يكون أحياناً جديراً بالاحتقار والازدراء، ولكن فجأة يسحر ويلامس أو يكشف عن شعور ديني يوحي برجل دين من العصور الوسطى؛ وكاتول منديس *Catulle Mendès* الرومانتيكي الصرف، والباحث ولكن الناظم المدهش البارع للشعر. إلى هؤلاء الشعراء يمكن أن نضيف المتأنقين الأدبيين الجادين الذي تصدوا للمعارضة، لرغبتهم في تجديد الفن الشعري بإضفاء قيمة على صوت الكلمات أكثر من معناها، ويجهدون لخلق موسيقى للشعر وبشكل عام - وهذه سمتهم الرئيسية - يصعب فهم شعرهم. أطلقوا على أنفسهم اسم الرمزيين، وقبلوا ما قدمه المنحطون؛ واعتبروا ستيفن مالارميه إما زعيمهم أو صديقاً يشرفهم. ولم تقدم هذه المدرسة روائع والأرجح أن تنسى في وقت قصير.

الأدب الواقعي

في مواجهة كل هذا الأدب، ذي الأصل الرومانتيكي حتى عندما تأثر بازدراء رجال *1830* ، كان يتطور أدب واقعي كل الواقعية يتألف في معظمه من كتاب النثر حصراً، ولكنه نثر مشوب بشعر كتبه بعض من قرأ لرومانتيكيين ومن لم يحققوا ما وجد من قبل في الرومانتيكية، حقيقة لم يرفضوها هم أنفسهم، وهي اليوم مقبولة بصورة شاملة. فلوبير *Flaubert*، الذي تعود رائعته **مدام بوفاري** إلى عام *1857* كان منقسماً بالضبط بين مدرستين؛ فقد امتلك الذوق لتوسيع الفصاحة، من أجل تلوين المغامرات وما هو شرقي، وكذلك الذوق من أجل تشخيص العام والمبتذل، من خلال تمثل الحقيقة، فصوّر بدقة أهميته بشكل عام. ولكن بما أنه حقق نجاحاً أفضل، على الأقل في عيني معاصريه، كواقعي أكثر منه كرجل خيال، فقد دخل التاريخ باعتباره مؤسس الواقعية على شرط أن يكون بلزاك يمتلك الكثير من الواقعية القوية التي أمدته بأنماط دافعة ومجهزة.

الطبيعية

من واقعية فلوبير ولدت طبيعية زولا *Zola* التي هي الشيء ذاته ولكن بتعبير مضخم. وبظهوره، بعبقريته المتماسكة وكذلك بخيال قوي عظيم، مارس على معاصريه نوعاً من السحر الذي من الصبيانية اعتباره سحراً بلا سبب.

بمزيد من اللطف الصافي وحتى المتطرف، مع أن ألفونس دوديه *Alphonse Daudet* هو نفسه معجب بالحقيقة المشخصة؛ امتلك أيضاً حساسية رشيقة، سحرنا وجعلنا نهتم بها دائماً، وهي عبارة عن حكايات تصويرية للعالم الباريسي في أواخر الإمبراطورية الثانية ومطلع الجمهورية الثالثة.

وحقق الأخوان دي غونكور *De Goncourt* نجاحاً ملحوظاً، لكونهما استوعبا المآثر الاستثنائية والشخصية الاستثنائية في الوقت الذي يمتلكان الأسلوب المتماسك الذي يكون أحياناً جذاباً بسبب تأثيراته الخفية.

الوضعيون

رجلان عظيمان ملأا بشهرتهما مرحلة مشرقة؛ وهما رينان *Renan* وتين وكلاهما مؤرخان وفيلسوفان. ألف رينان **تاريخ أطفال إسرائيل** و**أصول المسيحية** وأيضاً مؤلفات مختلفة في الفلسفة العامة، أعظمها شهرة **المحاورات الفلسفية.** وكتب تين تاريخ **أصول فرنسا المعاصرة**: أي تاريخ الثورة الفرنسية وعدداً من المؤلفات الفلسفية الأساسية هي **في المعلومات** و**الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر**. كلاهما كانا "وضعيين" - إن جاز القول، هما يعملان في خط أوغست كونت *Auguste Comte* الذي له مكانته في تاريخ الفلسفة، ولكن ليس هنا، لأنه لم يكن كاتباً جيداً؛ كلاهما هنا وضعيان، ولكن رينان امتلك حساً حيوياً وعميقاً بالعظمة والجمال الأخلاقي للمسيحية، وتشرب تين الدقة الفلسفية. رينان، بالمرونة المطلقة للمعلومات، روض نفسه لفهم عميق بصورة دائمة (مع بعض الشطط) حتى يقنعنا بشخصيات التوراة والأناجيل والمسيحيين الأوائل، وأيضاً خصومهم حتى أيام ماركوس أورليوس. بالإضافة إلى هذا أكد أن العلم يمتلك قيمة فريدة في كتابه **مستقبل العلم**، وفي مكان آخر، فيما يشبه "الأحلام" ينخرط في مفاهيم وفرضيات وتصورات ميتافيزيائية كانت تندفع طوعاً وبشكل مغوٍ بلا حدود. وكما يحدث دائماً امتلك أسلوب عقله المطواع الملتوي المتموّج والتشكيلي المدهش، النهم والساحر والمثير للتعليق التالي "أي يتحقق على نحو رائع ومن المحال أن تعرف بأي شيء تحقق".

تين

تين الأكثر صرامة، المراكم للوثائق ومرتبها طرائقياً بأسلوب يرفض إخفاءه، تقدم بنظام مرتب، خطوة فخطوة، وبخطوات محسوبة، إلى حقيقة صلبة لم يرغب أن يكون مراوغاً أو معقداً. وبكثير من التشاؤم من دون أن يتأثر بذلك إلا قليلاً، مثلما كان رينان متفائلاً من دون أن يتأثر بذلك كثيراً، آمن بأصل الشر في الإنسان وبضرورة لجمه لجماً كبيراً إذا أراد أن يبقى من دون أذى. كتب

تاريخ الثورة في حين رفض الاحترام والإعجاب بالجرائم المقترفة، التي هي سبب أن الأجيال التالية الآن أخذت تقسو عليه. أسلوبه المثقف مصطنع بكامله، ملوّن من دون أن يكون هو نفسه هاوي تلوين، ومركب من استعارات طويلة مع صعوبة، ومع ذلك يبقى متفرداً قوياً يفرض نفسه. كان فيلسوفاً جاداً ومؤرخاً جاداً وقاسياً أو بالأحرى كان ككاتب صاحب نظام صلب متماسك أصيل.

برونتيير

برونتيير *Brunetière* من المفكرين الفرنسيين الكبار قبل المرحلة المعاصرة. كان ناقداً ومؤرخاً أدبياً وفيلسوفاً ولاهوتياً وخطيباً. كناقد دافع عن التراث الكلاسيكي ضد الابتكارات الجريئة، وبالأخص، وقف مع الأدب الأخلاقي ضد الأدب المستهتر أو الفاضح؛ وكمؤرخ أدبي أصلح التاريخ الأدبي بتقديم نظرية للتطور جادة جريئة ومثمرة وكتابه **كراسة تاريخ الأدب الفرنسي** تحفة رائعة؛ وكفيلسوف تعلم الوضوح والدقة في نظام أوغست كونت، الذي كان تلميذاً له؛ وكلاهوتي تجاوز كونت واستغله، فأضاف وزناً للكاثوليكية في فرنسا بإيجاد "أسباب إيمان" جديدة وحاسمة. وكخطيب انتشرت فصاحته المدهشة في فرنسا وسويسرا وأمريكا، فخلق أكثر من مائة "خطاب مقاتل". ومنذ وفاة رينان وتين كان المدير الوحيد للفكر الفرنسي، الذي تابع الاسترشاد بكتبه وصهر فكره في معظم العقول الجادة والمتأملة في العصر الحديث.

الدراما المعاصرة

منذ عام *1850* كانت كتابة الدراما محصورة بمعظمها في النثر. على أي حال ألف إميل أوجيه *Emil Augier* بعض الكوميديا والدراما شعراً، وشعراً يناسب المسرح بشكل خاص؛ ولكن القسم الأعظم من عمله كان في النثر، بينما ألكسندر دوماس *Alexander Dumas* وفكتوريان ساردو *Victorien Sardou* كتبا حصراً بالنثر. وانحدر أوجيه ودوماس من بلزاك، وظلا واقعيين واقعية عميقة، مناسبة بشكل خاص لمؤلفي الكوميديا. وقد درسا أخلاق

الإمبراطورية الثانية ورسماها بذكاء؛ ودرسا المسائل الاجتماعية التي أثارت العقول المثقفة في هذا الوقت واستخلصا أفكاراً مفيدة. وقد اتجه أوجيه إلى الحس العام للطبقة المتوسطة الطيبة، الذي لم يحرمه من وفرة الفطنة. كان دوماس أكثر إدماناً على المغالطة وامتلك الكثير من القدرة كمنافسه. وفكتوريان ساردو بناء درامي متقن مثل سكريب، وقد يرتفع أحياناً فوق هذا، وينتقل بتسامحه الجم من الدراما التاريخية العظيمة إلى كوميديا السلوك، إلى الكوميديا الخفيفة وإلى الكوميديا التافهة مع سهولة كبيرة وخصوبة لا حد لها.

معظم المؤلفين الأحياء المحترمين، الذين نكتفي فقط بتسميتهم لأنهم أحياء، هم من الشعراء: إدموند روستان *Edmond Rostand* مؤلف **المتسكعون**؛ وإدموند هاركور *Edmond Haraucourt* مؤلف **النفس العارية** و**أمل العالم**؛ وجان إيكار *Jean Aicard* مؤلف *Miette el Noré* وجان ريشبان *Jean Richepin* مؤلف **القيصرة** و**المتعانقون** و**المجدفون** الخ؛ وفي الرواية بول بورجيه *Paul Bourget* ومارسيل بريفو *Marcel Prévost* ورينيه بازين *René Bazin* وبوردو *Bordeaux* وبوليسيف *Boylesve* وهنري دي رينيير *Henri de Régnier* وفي التاريخ أرنست لافيس *Ernest Lavisse* وأولارد *Aulard* وسينوبوس *Seignobos* ودوسونفيل *D'Haussonville* وفي الفلسفة بوترو *Boutroux* وبرغسون *Bergson* وتيودول ريبو *Théodule Ribot* وفوليه *Fouillée* وإيزوليت *Izoulet*؛ وفي الدراما بول هرفيو *Paul Hervieu* ولافيدان *Lavedan* وباتيل *Bataille* وبريو *Brieux* وبورتوريش *Porto-Riche* وبرنشتين *Bernstein* وولف *Wolff* وترستان برنارد *Tristan Bernard* وإدموند روستان مؤلف **سيرانو دي برجراك** و**فرخ النسر**؛ والخطباء ألكسندر ريبو *Alexander Ribot* وديمون بوانكاريه *De Mun Poincaré* وجوريس *Jaurès* الخ.

الفصل السادس عشر

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: إنكلترا

عهد الملكة آن

كما في فرنسا، كان القرن الثامن عشر (عصر الملكة آن *Anne*) في إنلكترا أغنى في نثره من شعره. على أي حال، كشعراء، لا بد أن نشير إلى توسمسون *Thomson*، الوصفي والدرامي، الذي كان عميق الشعور بالطبيعة وكان له تأثير على الكتاب الفرنسيين في القرن ذاته؛ وبوب *Pope* الكاتب الوصفي والمترجم والأخلاقي وشاعر المراثي، واسع المعرفة عالي الثقافة، كتاباه **مقالة في النقد** و**مقالة في الإنسان** استغلهما فولتير؛ وإدوارد يونغ *Edward Young* الذي حظي كتابه **أفكار الليل** بنجاح هائل في فرنسا، كما في إنكلترا، والذي ساهم في إدخال الحزن والتجهم في كلا الأدبين، وماكفرسون *MacPherson* الذي اخترع أوسيان *Ossian* وهو شاعر من شعراء الغاليين، وادعى أنها قصائد العصور الوسطى، وهو صاحب عبقرية رائعة، كما يقال، مارس تأثيراً كبيراً على الرومانتيكية في كلا البلدين؛ وشاترتون *Chatterton* الذي سار على الطريق ذاته، ولكن بنجاح أقل، ومع ذلك كان على قدم المساواة مع الشعراء الرومانتيكيين الفرنسيين، وكان مديناً لهم بدعم خلوده؛ وكوبر *Cowper* شاعر الرثاء والخيال، مع دفق من المرح؛ وكراب *Crabbe* الذي كان وثيق الصلة بالعادات الشعبية والمجدد الأصيل في الشعر، يشبه تجديد الرسامين الهولنديين؛ وبيرنز *Burns* الشاعر الفلاح الحساس والعاطفي، ومع ذلك كان في الوقت ذاته فناناً دقيقاً تأثر بالعادات المحلية والتجليات التي كانت تبرز أمام عينيه.

كتاب النثر

كان أسياد النثر (وبعضهم كانوا أيضاً شعراء حقيقيين) عديدين جداً. فكان دانيال ديفو *Daniel Defoe* صحفياً هجاء ومؤلف كتب، وهو مؤلف القصة الخالدة **روبنسون كروزو**؛ وأديسون *Addison* الذي أعجب به فولتير، مؤلف تراجيديا **كاتو** وهو باحث من الطبقة الرفيعة دقيق وحساس، ومتطرف التفكير أصدر **السبكتاتور** *Spectator* ، ورتشاردسن *Richardson* معبود ديدرو وجان جاك روسو، حظي بنجاح أوروبي برواياته العاطفية والأخلاقية، **باميلا - كلاريسا - هارلو - السير تشارلز غراندسن**. أما كناقد وكشخصية فلا نظير للدكتور جونسون في أي عصر أو بلاد. اشتهر **المعجم** الذي وضعه على الرغم من أخطائه ولا يزال يقرأ كتابه **راسيلاس** الذي كتبه لدفع نفقات جنازة أمه.

فيلدينغ *Fielding* الذي بدأ مقلداً ساخراً لرتشاردسون في روايته **جوزيف أندروز** انتهى بأن أصبح روائياً واقعياً مدهشاً، والسلف البارز لثاكري *Thackeray* وديكنز *Dickens* في روايته الفائقة **توم جونز**. وغولدسميث *Goldsmith* اللطيف الأكثر قرباً إلى رتشاردسون، كتب الرواية الريفية **قسيس ويكفيلد** الساحرة التي ظلت تؤثر بعمق في أوروبا لمدة خمسين سنة. لورنس ستيرن *Laurence Sterne* الممثل الأكثر دقة للمزاج الإنكليزي، يسيطر على العاطفة وبشكل خاص العاطفة الساخرة والمهرج والغامض، وقد استمتعت عدة أجيال وارتبكت بروايته **رحلة عاطفية** وروايته الخيالية المقلقة والفاتنة **ترسترام شاندي**. سويفت *Swift* الساخر المرير جداً والمتآكل والوحشي يسخر سخرية حزينة من المجتمع في أيامه في روايته **رحلات غاليفر**، وفي **رسائل تاجر قماش**، وفي كتابه **اقتراح لمنع إرهاق أطفال الفقراء** وفي الكثير من كتبه الصغيرة الأخرى حيث يغطي غضبه الحانق تحت شكل التهكم البارد والجليدي.

التاريخ

جرى التعبير عن التاريخ في إنكلترا في القرن الثامن عشر على يد ديفيد هيوم *David Hume* الذي أرخ التقدم في العرق الإنكليزي من العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر؛ وعلى يد روبرتسون *Robertson* الذي عالج أيضاً تاريخ الاسكتلنديين، والذي سرد حكم تشالز الخامس، وعلى يد جيبون *Gibbon* المطلع على المجتمع الفرنسي في زمنه، والذي تابع الرومان من القياصرة الأوائل حتى ماركوس أورليوس، ثم من ماركوس أورليوس حتى مرحلة قسطنطين، وأخيراً الإمبراطورية البيزنطية حتى مرحلة النهضة. اطلاعه المعرفي الرفيع بل بالأحرى الأسلوب الفخم، بل المميز للمؤلف، بغض النظر عن عدائه للمسيحة، جعله يحظى بنجاح عظيم، وبخاصة في فرنسا. كتاب جيبون اعتبر أرقى مثال للتاريخ كتبه إنكليزي.

المسرح

غرق المسرح الإنكليزي في القرن الثامن عشر في الأهمية إلى ما دون مسرح القرن السابع عشر، ومع ذلك من لا يعرف **تواضعت حتى تمكنت** لغولدسميث، والكوميديا المتألقة والحيوية **مدرسة الفضائح** لشريدان *Sheridan*؟ وبرز كصحفي لا نظير له، جونيوس *Junius* الشهير والغامض الذي من عام *1769* حتى *1772* شن حرباً مرعبة على الوزير غرافتون *Grafton*.

شعراء البحيرة

في القرن التاسع عشر ظهر أولئك الشعراء الذين عرفهم الرومانتيكيون الفرنسيون، إذا لم يكن هؤلاء الأخيرون هم الذين لقبوهم بشعراء البحيرة، لأنهم كانوا عشاق الريف؛ هم ساوثي *Southey* وكولردج *Coleridge* ووردزورث *Wordsworth*. كان ساوثي شاعر الملحمة والرثاء، بينما في الوقت نفسه كان وصافاً؛ وكولردج فيلسوف وميتافيزيقي ضبابي قليلاً وفوضوي، له هبات رائعة

وبعض الشلالات الحزينة. أما وردزورث فكان مميزاً في الغنائية. ولم ينل اللورد بايرون *Lord Byron* الشرف بالمعالجة الفجة كما فعل ساوثي وورد زورث.

المرحلة الرومانتيكية

الشاعران الإنكليزيان الكبيران للمرحلة الرومانتيكية هما لورد بايرون وشيللي *Shelley*؛ الأول شاعر مبدع متحرر من الوهم واليأس، لديه عبقرية ملحمية نبيلة، فخلق وأحيا شخصيات، لا بد من الاعتراف أنه لا يختلف أحدها عن الآخر إلا قليلاً، ولكن بلغة فخمة وأسلوب عظيم، وهو الشاعر الإنكليزي الوحيد الذي، عدا شكسبير، مارس تأثيراً أصيلاً على الأدب الفرنسي؛ والشاعر الآخر شاعر مثالي لأعظم رقة مرهفة أثيرية وسماوية، على الرغم من حياة خاصة من الفوضى العارمة حتى الإثم، هو واحد من أكمل الشعراء الذين عاشوا؛ وتراجيدي عظيم أيضاً، في شنشي *Cenci* ولم يُعرف في فرنسا حتى أواسط القرن التاسع عشر، ولكن منذئذ كان موضوع عبادة بين أكبر عدد من شعراء الغال وعشاق الشعر.

كان كيتس *Keats* رومانتيكيا مثل شيللي وبايرون، فبالرغم من، وبسبب من جهوده اليائسة لتمثل الروح الإغريقية، حلم بأبطالها وأساطيرها القديمة، ولكن كان فيه القليل مما هو يوناني عدا اختيار الموضوعات، ولن نجد في قصيدته الضخمة **إنديمون**، ولا حتى في تلك القطعة الجميلة **هيبريون** الشاعر الواقعي الكئيب الحساس والحديث، بل في قصائده القصيرة الأخير **القبرة - على زهرية يونانية - الخريف**، التي باكتمال شكلها وبأسلوبها الغني بالانسجام، تحتل مكاناً بين أعظم الأغاني الجميلة في الغنائية الإنكليزية.

الأقرب إلينا هو تنيسون *Tennyson* المتمكن من الأفكار المتباينة، شاعر ملحمي وغنائي ورثائي، دائماً ينقي ويمجد في مقاربة الأدب الكلاسيكي، وهو نفسه كلاسيكي.

سوينبرن *Swinburne* الذي يكاد يكون غنائياً، ناظم متقن بارع، يستوحي قدامى الإغريق، ويثبت بصورة عامة أعلى مزاج شاعري أصيل، ودانتي روزيتي *Dante Rossetti* المشرب بأفكار العصور الوسطى، امتلك خيالاً قوياً وبعض الدوار. والأقل شهرة في القارة، حيث قد يدهش النقاد من ضرورة تضمينها هنا، أخته كرستيان روزيني *Christina Rossetti*. مزاياها كشاعرة هي الرقة الفردية واللمسة الفاتنة، ومقدرة غريزية كصاحبة أسلوب معصوم إلى حد بعيد. ويشكل البراونينغيان زوجين شهيرين، وحولهما كارليل *Carlyle* لدى سماع نبأ زواجهما لاحظ أنه يأمل أن يفهم أحدهما الآخر. أثبتت إليزابيث باريت برواوننغ *Elizabeth Barrett Browning* مترجمة أسخيلوس وثيوقريطس في شعرها الأصيل قوة وحيوية وغزارة التشبيهات القوية التي ذكرت بالشعراء الإليزابيثيين، إلا أنها شوهت عملها بخطابة انفعالية وبأسلوب صاخب وغامض. روبرت براوننغ أكثر صعوبة، بسبب ذوقه الطاغي لكل ما هو ذكي غريب - لا بل حتى لكل ما هو متنافر. تجاهله معاصروه، أو على الأقل لم يقدروه، ولكن بعدئذ نال مكانة رفيعة بين المعجبين الإنكليز، بسبب أفكاره العميقة والأصيلة والغنية جداً، وربما إلى درجة أبعد، لأنها تحتمل هي نفسها تأويلات مختلفة.

الروائيون

في النثر بدأ العصر بروائي تاريخي هو السير ولتر سكوت *Sir Walter Scott* المفعم بالتراث الشعبي والمعرفة، فأعاد بناء الأزمنة الماضية وإحياءها، وبشكل خاص العصور الوسطى، وأشرب كل شخصياته بالحياة ودب الحيوية في الموضوعات التي أثارها. لا أحد أكثر منه، ولا حتى بايرون، حظي بتقدير دائم من كل من الشعراء الرومانتيكيين الفرنسيين والقارئ العام الفرنسي. والرواية الإنكليزية، التي خلقها هذا المعلم الكبير تابعها بجدارة ديكنز، العاطفي والإنساني، ساخراً، ولكنها سخرية أصيلة، راصداً أنماط الطبقة الوسطى الإنكليزية، وهو مصور دقيق ومتعاطف مع الفقراء؛ كما تابعها ثاكري، أكبر محاصر وساخر ومخيف للأنانيين والمنافقين والمتكبرين؛ كما تابعها المسلي

الكثير الإنتاج بلوير ليتون *Bulwer-Lytton* والكئيبة الفلسفية والحساسة جورج إليوت *George Eliot* وشارلوت برونتي *Charlotte Brontë* مؤلفة **جين آير** الرواية العاطفية الخ، وأختها إميلي *Emily* التي حظيت روايتها **مرتفعات ويذرينغ** بإعجاب كبير جداً.

هناك أربعة كتاب نثر آخرون يمثلون تنوعات مذهلة بين الواحد والآخر لا يمكن غض النظر عنهم. ينتمون إلى النصف الأول للقرن التاسع عشر، وهم تشالز لام *Charles Lamb* الذي حقق شعبية واسعة في كتابيه **قصص من شكسبير** و**الشعر للأطفال**، بالاشتراك مع أخته ماري؛ ولكنه اشتهر بصورة خاصة بعد أن أصدر كتابه الشهير **مقالات إيليا** (وإيليا اسمه الأدبي - المترجم) حيث قدم برهاناً على امتلاكه الخليط التناقضي للحساسية اللطيفة وروح المرح وكذلك للملاحظة الدقيقية والعظيمة أيضاً. ونيومان *Newman*، الكاهن الإنكليزي، ثم الكاردينال بعد تحوله إلى الكنيسة الكاثوليكية، يبدو لي من الصعب أن يذكر في تاريخ أدب لا مكان لـ لامينيس. وكرجل أدب أثرت مواعظه الشهيرة في أكسفورد وتراكتس *Tracts* تأثيراً عظيماً، وأثارت انعاشاً متقداً وكبيراً للمبادئ القديمة ولما هو مهجور في الدين؛ ثم كتب **دفاع عن حياة المرء** و**كاليستا** و**تاريخ الأريوسية** فكشف عن فصاحة خبير.

صاغ رسكين *Ruskin*، كناقد فني، في مجلداته المشرقة بجمال الأساليب البارز **الرسامون المحدثون** - **مصابيح المعماري السبعة** - **حجارة فينيسيا** المبادئ وأقام مدرسة ما قبل الرفائيلية. وفي زمن الإحياء الديني في أكسفورد دعا إلى تقليد كامل للقديم بالسير في طريق النهضة، مستنجداً بالأفكار الوطنية وأفكار العصور الوسطى، من دون أن يخلو ذلك من السذاجة والأسلوب المهجور، ومع ذلك ظل واضحاً لأنه كان عاقلاً وراسخاً. وكان جورج ميريدث *George Meredith* الذي توفي في *1910* كثير الإنتاج وروائياً متورطاً (إنه براوننغ في النثر) مع عاطفة جارفة إلى الاستعارات وانتقائية التعبير الحرة التي تحتقر الحشود. يضاف إلى ذلك أنه ذو معرفة عميقة في الحياة والنفس البشرية؛ مع روح فكاهية

خصبة، فكان مبدع الأنماط التي لا تنسى للشخصية، ولم يكن ما قبل عصره أجنبياً في نظر عقله، بينما واقعيته العنيفة ترفض دائماً بكل عناد أن تبتعد عن الموضوعات المعاصرة أو تشبع الحاجات والأفكار التي يمكن أن تشبع. ما كتب على ضريحه من أنه فهم نساء زمنه، يعتبر ظاهرة نادرة.

التاريخ

أبرز لنا التاريخ كاتبين متفوقين تفوقاً مطلقاً - ماكولي *Macaulay* في **تاريخ إنكلترا منذ جيمس الثاني** كقارئ وكاتب متألق جداً وكارليل الذي لقب بـ ميشيليه الإنكليزي، الحيوي والعاطفي والمتضارب والمقلق، الذي عالج التاريخ كشاعر غنائي مفرط القوة.

الفصل السابع عشر

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: ألمانيا

عصر فريدريك الأكبر

في الأدب الألماني ينضوي القرن الثامن عشر أحياناً تحت عنوان عصر فريدريك الأكبر أو أشكال النهضة أو إن أردت اليقظة بعد سبات طويل جداً. وتدعمت اليقظة بخصام، ليس هاماً بحد ذاته، لكنه أثمر خصباً، بين غوتشيد *Gottsched* بوالو الألماني، وبودمير *Bodmer* الداعم المتحمس لحقوق الخيال. وإلى جانب بودميرظهر هالر *Haller* وهو سويسري مثله، ثم فجأة ظهر كلوبشتوك *Klopstock*. وأنتج كلوبشتوك **المسيا** *Messiah* وهي ملحمة شعرية؛ إنها تاريخ يسوع المسيح من قانا *Cana* حتى القيامة، مع حشد من الموضوعات المرتبطة بالحدث ارتباطاً محكماً. وسادت العاطفة الدينية العميقة وعظمة العرض وجمال المشاهد وصفاء الموعظة ونبلها واللون التوراتي بمهارة على كل الإنشاء، فضخم هذه القصيدة، التي ربما كانت مدحاً مفرطاً في مظهرها الأول، لتكون واحدة من أعظم منتجات العقل البشري، حتى مع كل التحفظات. فانتعش الأدب الألماني. أما بالنسبة إلى غوتشيد فقد هزم.

الشعراء

ثم ظهر لافاتر *Lavater* ـ بورغر *Bürger* ـ ليسنغ *Lessing* ـ فيلاند *Wieland*. ونذكر لافاتر، السويسري مثل هالر، بسبب أعماله العلمية، ولكنه كان أيضاً شاعراً مميزاً، وقد ظل ديوانه الساذج والمثير **ترانيم سويسرية** أناشيد وطنية؛ وكان بورغر شاعراً عظيماً غنائياً عاطفياً شخصياً أصيلاً متردداً؛ فيلاند،

الملقب بفولتير ألمانيا، بدأ أيضاً كصديق لكلوبشتوك، وهو رشيق خفيف ناعم، احتفظ ديواناه **أوبيرون** و**أغاثون** بموهبة النجاح القديم المتنامي، وهو أحد أعظم العقول التي أنتجتها ألمانيا. وقد كرمه نابليون بأن رغب في التحدث إليه مثل غوته.

ليسنغ

كان ليسنغ شخصياً مؤلفاً عظيماً، ويعزى ذلك إلى التأثير الذي مارسه على أبناء بلده، وهو يشغل أحد أنبل المواقع في تاريخ الأدب الألماني. كان ناقداً وفي كتابه **دراما هامبورغ** وفي مواضع أخرى هاجم بكل قوته، ومن دون إنصاف، الأدب الفرنسي ليكبح السطوة التي، حسب رأيه البليد، فرضت على الألمان؛ وفي كتابه **لاؤوكون** *Laocoön* خلق بسهولة مدهشة نوعاً من تصنيف للفنون. وكمؤلف، وبخاصة كمتكلم، كتب **حكايات** تعتبر في ذوقنا جافة وباردة؛ ووضع عدة جهود درامية لم تبرز واحدة منها كقطعة رائعة، وأعظمها **مينا فون بارنهيلم** و**إميليا غالوتي** وقصيدة فلسفية على شكل حوار(فمن الصعب تصنيفها في الدراما) **الحكيم ناثان** ذات الجمال الأخلاقي والأدبي العظيم.

هردر

كان هردر *Herder* فيكو ألمانيا. هنا نشأ الفيلسوف التاريخي، أو بالأحرى الفيلسفوف العميق في التاريخ. فعل كل شيء: النقد الأدبي والأعمال المعرفية الموسوعية والترجمات وحتى القصائد الشخصية، ولكن عمله العظيم هو **أفكار حول فلسفة تاريخ البشرية**. وهو نظرية التقدم في كل اتساعها وجلالها، مدعمة بالحجج التي أقل ما يقال فيها أنها شاملة وجليلة. من ميشيليه حتى كوينيت *Quinet* استوحى منه كل مؤلف فرنسي وحدة مصائر الجنس البشري. أسلوبه الدقيق الواسع المتنوع دائماً يكون في مستوى الموضوع وينسجم معه. حتى في التاريخ الأدبي يجب ألا ننسى كانط *Kant* لأنه تصدى لتأليف أطروحة أخلاقية، مثل كل من اعتمد عليه، احتل مرتبة عليا ككاتب.

المرحلة المجيدة

وهكذا نصل إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. في هذه المرحلة الوسيطة سطع أعظم مجد للأدب التيوتوني. فتقدم معاً أفلاند *Iffland* وكوتزيبو *Kotzebue* وكورنر وشيللر *Schiller* وغوته إلى الواجهة. وقد شكل هذا كوكبة عظيمة. فأفلاند ممثل ومدير ومؤلف، وصديق ونصير شيللر، كتب العديد من الدراما، أهمها **مجرم بطموحه - التلميذ - الصيادون - المحامون - أصدقاء المنزل**.

كورنر

كورنر *Körner* ويلقب بـ تيرايوس ألمانيا وكان في الوقت ذاته جندياً شجاعاً وشاعراً غنائياً عظيماً قتل في ميدان معركة غاديبوش *Gadebusch* كتب قصائد غنائية ودراماً وكوميديا ومهزلة، وأشهر ما كتب **القيثارة والسيف** وهي أناشيد حربية مشوبة بروح شخصية رائعة.

شيللر

شيللر عبقرية ضخمة ومؤرخ وشاعر غنائي وشاعر درامي وناقد، أظهر نفسه في كل هذه الميادين المختلفة أنه أصيل عميق. كتب **حرب الثلاثين عاماً** وأناشيد وأشعاراً قصصية وقصائد عاطفية من أمثال **الساعة** فاشتهرت على نطاق واسع؛ وكتب أطروحات في النقد الفلسفي مثل **إله اليونان** و**الفنانون**، وأخيراً خزانة كبيرة من الدراما (تكفي الإشارة إليها حتى تظهر أنه تفوّق على غوته) يمكن أن نشير من ضمنها إلى عمله الجريء والمتهور والفوضوي **قطاع الطرق** ثم إلى **شعوذة فيسو - المكيدة والحب - دون كارلوس - ولشتاين** (ثلاثية تتألف من **معسكر ولشتاين** و**بيكولميني** و**موت ولشتاين**) - **ماري ستيوارت - خطوبة ميسينا - عذراء أورليانز - وليم تل**. مارس في الأدب والفكر الألماني تأثيراً على الأقل مساوياً تأثير غوته، وأعتقد أنه متفوق عليه. كان متحداً مع غوته بروابط

من الصداقة العميقة الثابتة. توفي في صباه، عام *1805* في السابعة والعشرين من عمره أمام صديقه الشهير.

غوته

غوته، الذي يمكن أن تضعه الأجيال اللاحقة في درجة هومر ذاتها، أكثر شمولية في العبقرية، واقترب أكثر إلى الجمال المطلق. من الثقافة الفرنسية - الألمانية درس في ستراسبورغ فافتتح أعماله وهو لا يزال طالباً بكتابه الخالد **فرتر** *Werther*الذي يمكن القول إن أدباً كاملاً كرس نفسه له، وبين معترضتين، إن أدباً معاكساً جداً لما صار عليه أدب غوته. ثم قام برحلة إلى إيطاليا، كشفت لغوته ذاته الداخلية، وجعلته رجلاً لا يكف عن الرغبة في جمع الجمال الكلاسيكي إلى الأساليب الألمانية في التفكير، وقد نجح في ذلك نجاحاً رائعاً. ولنضعه بطريقة أخرى، إن غوته في بلاده يشكل نهضة بحد ذاته، والنهضة التي عرفتها ألمانيا في القرن السادس عشر أو السابع عشر لم تعرف موهبة مثل موهبة غوته. بعد عودته من إيطاليا مباشرة كتب **تاسو**(من الوحي الكلاسيكي) و**وليم ميستر**(من الوحي التيوتوني) و**إفيجينيا** (مأساة كلاسيكية) و**إغمونت** (تيوتونية) الخ. ثم ظهر كتاب **هرمان ودروبته** وهو كلاسيكي محض في بساطة خطته وصفاء شعره الغنائي، ولكنه من حيث الجوهر حديث في تصويره العادات الألمانية؛ ثم **الرثائيات الرومانية** و**الأنساب المختارة** و**الشعر والحقيقة** (سيرة ذاتية مختلطة بالرومانسة) و**الديوان الشرقي الغربي**، وهو قصائد غنائية، وأخيراً **فاوست** في مجلدين. في الجزء الأول من فاوست كان غوته، ألمانياً بالكامل، كما رغب؛ وفي الجزء الثاني، وبكثير من أحلام اليقظة المتعلقة بالموضوع، كان أكثر رغبة في وصف اتحاد الروح الجرمانية بروح العبقرية الكلاسيكية، التي شكلت حياته الخاصة، مما قاده إلى **الأداء الثقافي** الذي هو أيضاً جزء من وجوده. وفي الجمال والدراما والتعاطف والسهولة والخيال والخصوبة في ابتكار متنوع، لم يتخط شيئاً، إن كان هناك حتى ما يساوي جزئي **فاوست**، الذي يعتبر قصيدة مفردة.

وإلى جانب أعماله الأدبية شغل غوته نفسه في إدارة دوقية فيمار، وفي البحث العلمي، وبشكل خاص في النبات والحيوان وتنظيم صفوف الجيش الذي أظهر فيه أصالة مشهودة. توفي في *1832* وكان ولد في *1749*. تمتد سيرته الأدبية تقريباً مدة ستين سنة، مساوية السيرة الأدبية لكل من فكتور هيغو ومساوية تقريباً لسيرة فولتير الأدبية.

الفترة المعاصرة

بعد موت غوته لم تستطع ألمانيا الحفاظ على الذروة ذاتها. حازت المجد مرة أخرى في الشعر على يد هنري هاينه *Henry Heine* الرحالة الذكي ذكاء أصيلاً، في كتابه **صور رحالة** وهو رثائي وغنائي متعاطف ومبتهج في الوقت نفسه في **الفاصل الموسيقي**؛ وعلى يد المدرسة النمساوية من أمثال زيدليتز *Zedlitz* وغرون *Grün* ولينو *Lenau* الكئيب والمفكر العميق؛ وفي النثر، وقبل الجميع على يد الفلاسفة فيخته *Fichte* وهيغل *Hegel* وشوبنهور وهارتمان *Hartmann* وأخيراً نيتشه *Nietzsche* - وهو في الوقت نفسه فيلسوف وأخلاقي (على طريقته الخاصة) وشاعر مع خيال مدهش؛ وعلى يد المؤرخين نيبور *Niebuhr* (قبل عام *1830*) وتريتشكي *Treitschke* ومومسن *Mommsen* الخ. تبدو ألمانيا آخذة في الهبوط، إذا أخذنا الأدب بعين الاعتبار، على الرغم من بعض الاستثناءات الكبيرة (وبخاصة في الدراما: هوبتمان *Hauptmann* – سودرمان *Sudermann*) منذ انتصاراتها العسكرية في عام *1870* ونشاطها الصناعي اللاحق.

الفصل الثامن عشر

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: إيطاليا

اليقظة الأدبية

بعد انحطاط طويل، عادت إيطاليا وقد تضاءلت هيمنتها سياسياً، إلى تجديد اليقظة في *1750*. مرة أخرى ظهر إلى المقدمة شعراء: ميتاستاسيو *Metastasio*، مؤلف تراجيديات وأوبرات؛ غولدوني *Goldoni* الشديد الذكاء والشاعر المتهتك الكوميدي؛ وألفيري *Alfieri* الذي أنعش التراجيديا الإيطالية، التي أنهكت وصمتت منذ ما في *Maffei* والذي، مثل فولتير في فرنسا، وبنجاح أكبر، أسس فرعاً فلسفياً وسياسياً؛ فوسكولو *Foscolo* الضعيف جداً في التراجيديا ولكن المؤثر والفصيح في **الأضرحة** المستوحاة من كتابي يونغ *Young* **أفكار الليل** و**رسائل يعقوب أورتيس**، وهو روائي هام وفصيح ووطني متحمس؛ مونتي *Monti* المتعدد الجوانب والماهر في كل المناقضات بحسب اهتماماته الخاصة، ولكنه كاتب نقي جداً وليس من دون إشراق في قصائده المنظومة نظماً عالياً.

كتاب النثر البارزون

استطاعت إيطاليا أن تظهر كتاباً في النثر بارزين، كالمحسنين الفقهيين فيلانجيري *Filangieri* وبيكاريا *Beccaria*؛ والنقاد ومؤرخي الأدب من أمثال تيرابوشي *Tiraboschi*.

القرن التاسع عشر

في القرن التاسع عشر قد نجد أولاً بين الشعراء ذلك الشاعر الكبير ليوبادري *Leopardi* البائس شاعر الألم والحزن واليأس؛ وكاردوتشي *Carducci* الخطيب اللامع، التي تشرب بالعواطف القوية؛ ومانزوني *Manzoni* الغنائي والدرامي والمفعم بالتعصب الوطني، والذي اشتهر بروايته **الخطوبة** التي باتت شعبية في كل قطر في أوروبا. وقد حرك أوروبا حتى أبكاها سيلفيو بيليكو *Silvio Pellico* في كتابه **سجنائي**، حيث سرد تجاربه في تسع سنوات من الأسر في أيدي النمساويين، ووجدت تراجيديته **فرنسيسكا دي ريميني** ترحيباً بتقدير متملق. وقد مثل الفلسفة بشكل خاص جيوبرتي *Gioberti* مؤلف **أطروحة حول الفائق** ومثل الصحافة جيورداني *Giordani* الفصيح الذي أحياناً يكون لطيفاً وسهلاً وأحياناً أخرى يكون عنيفاً فظاً.

المحدثون

ونحن نكتب هذه الكلمات وصلت أخبار وفاة الروائي الشهير فوغازارو *Fogazzaro*. وهناك جبرييل دانونزيو *Gabriel d'Annunzio* شاعر وروائي ما فوق الرومانتيكية، وماتيلد سيراو *Mathilde Serao* الروائية الأصيلة التي تابعت سيرورتهما الشهيرة.

الفصل التاسع عشر

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: أسبانيا

الدراما

منذ أواسط القرن السابع عشر تقريباً مارست أسبانيا التأثير الأدبي أقل بكثير من القرون السابقة. على أي حال لم يكن الأدب الأسباني متلاشياً؛ وقد برز في الدراما بشكل خاص. فقد أنار المسرح كل من كاندامو *Candamo* وكانيزاريس *Cañizares* وزامورا *Zamora* . كرس كاندامو نفسه للدراما التاريخية؛ رائعته في هذا النمط هي **الرقيق في سلاسل ذهبية**. و برز كانيزاريس الفنان القوي، في الروح الكوميدية في كوميدياته التي تتناول الشخصية. زامورا عالج كوميديا الخديعة بمهارة ملحوظة. وبعده جاء فنسينتي دي لاهويرتا *Vincente de la Huerta* الماهر في الجمع بين نمط التراجيديا الفرنسية وبعض الأصالة الدراماتيكية القديمة الوطنية. ثم ليوناردو موراتين *Leandro Moratin* (يسمى موراتين الأصغر تمييزاً له من أبيه نيكولاس *Nicholas*) المقلد الحقيقي من دون شك لموليير، ولكنه في حدّ ذاته موهوب جداً ولا تزال أعماله تقرأ بكل متعة **العجوز والصبية ـ كوميديا جديدة عن القهوة ـ النفاق الأنثوي** الخ. وكتب أيضاً قصائد وسونيتات غنائية. عاش مدة طويلة في فرنسا، وهناك تشرب الأدب الكلاسيكي الغالي *Gallic*.

النثر

الأكثر قوة وإشراقاً من الشعر في تلك المرحلة هو النثر الذي مثله الأب فلوريز *Father Florez* مؤلف **أسبانيا الكنسية**؛ والمركيز دي سان فيليبو *Marquis de San Phillipo* مؤلف **حرب الخلافة في أسبانيا**. وأنطونيو دي سوليس *Antonio de Solis* مؤلف **غزو المكسيك**. وفي الرواية هناك الأب إيسلا *Father Isla* الشهير وهو يسوعي قدم تقليداً ذكياً لكتاب سرفانتس دون كيشوت في كتابه **تاريخ الواعظ الأخ جيروند**. وكان مقروءاً ووطنياً. كان مقتنعاً أن لوساج سرق كل كتابه **جيل بلاس** من عدد من المؤ لفين الأسبان، ونشر ترجمة روايته تحت اسم: **مغامرات جيل بلاس الذي من سانتياغو، المسروق من أسبانيا والمكيف في فرنسا بقلم م. لوساج، وأعاد النصوص إلى بلادها ولسانها الوطني الأسباني الغيور الذي لا يتحمل أن يُضحَك منه**. يسوعي آخر (ويمكن أن نلاحظ أن اليسوعيين في أسبانيا في القرن السابع عشر لعبوا دروا كبيراً في العقل الليبرالي والحديث) وهو الأب فييجو *Father Feijoo* الذي كتب نوعاً من المعجم الفلسفي بعنوان **النقد الدرامي الشامل**، وهو مراجعة للآراء البشرية التي تسخر وتتفكه بصورة قوية. وهناك المؤرخ أنطونيو دي سوليس، وكان أيضاً دراميا مقتدراً، كتب **تاريخ غزو أفريقيا الجنوبية المعروفة باسم أسبانيا الجديدة** بأسلوب بارز اتسم بالفصاحة، بل حتى بالفصاحة الكبرى. وكتب جوفيلانوس *Jovellanos* كثيراً بأساليب مختلفة. ومن بين المؤلفات الأخرى كتب تراجيديا رائعة هي **بيلاجيا** وكوميديا تقدم التناقضات الذكية بعنوان **المجرم الشريف**، وكمية ضخمة من الدراسات عن ماضي أسبانيا وأطروحات اقتصادية، وهجائيات وكراسات.

الرومانتيكية

في القرن التاسع عشر عادت الرومانتيكية في الأسلوب الشعري الرفيع على يد أنجيل *سافيدرا Angel Saavedra* وجوزيه زوريلا *José Zorilla* وفنتورا دي لافيغا

Ventura de la Vega ورامون كامبومور *Ramon Campoamor* واسبرونسيدا *Espronceda*. ويعد الأخير من بين أعظم أدباء الأسبان، لأنه كان شاعراً وروائياً كتب **تلميذ سالامنكا** (دون جوان) و**عالم الشيطان** (نوع من فاوست) وقصائد غنائية ورواية تاريخية **سانشو سالدانو** *Sancho Saldano*.

القرن التاسع عشر

في الدراما أيضاً أنتج كوينتانا *Quintana* **بيلاجيا** وأنتج دوق ريفاس *Duke of Rivas* **دون ألفارو**، التي حظيت بنجاح فوري؛ وكتب زوريلا *Zorilla* **دون جوان** وهي رواية مختلفة في المفهوم كل الاختلاف؛ وكتب مارتينيز دي لاروز *Martinez de la Rose* تراجيديات بعضها بمنحى كلاسيكي وبعضها الآخر تجري بحسب المكيدة الحديثة وكوميديات. وكتب غوتير *Gutierre* **اللقيط** فلفتت انتباه ليبراليي الأوبرا الفرنسية، وكتب بريتون دي لوس هيريروس *Breton de los Herreros* كوميديات ذات أثر ضئيل، معظمها مستوحى من سكريب. وفي النثر كان فيرنان كاباليرو *Fernan Caballero* روائياً خصباً ورساماً رقيقاً ودقيقاً في أسلوبه.و كان تروبا *Trueba* روائياً رعوياً شهيراً (وكان أيضاً شاعراً لطيفاً). وكان أميليو كاستيلار *Emilio Castelar*، لامرتين أسبانيا كما كان يسميه إدموند أبوت *Edmond About* خطيباً رائعاً، قذفته ظروف الحياة السياسية إلى رئاسة الشئون الوطنية فارتقى إلى أعلى مصاف إعجاب معاصريه برواياته، منها على سبيل المثال **شقيقة العفة** وبأعماله في التاريخ الفلسفي وتاريخ الفن **الحضارة في القرون الأولى للمسيحية** - **حياة بايرون** - **ذكريات من إيطاليا** الخ. في أيامنا هناك العديد من المؤلفين المميزين (في نظرنا على الأقل برز من الكثرة الدرامية الدرامي جوزيه أخيكاريا *José Echegaray*) الذين حملوا التراث المجيد للأدب الأسباني.

الفصل العشرون

الأدب الروسي

العصور الوسطى

امتلكت روسيا أدباً حتى في العصور الوسطى. في القرن الحادي عشر كتب المطران هيلاريون *Hilarion* خطاباً حول العهد القديم والعهد الجديد. في القرن الثاني عشر يعتبر **التاريخ** الذي قيل كتبه نسطور *Nestor* أول صرح تاريخي لروسيا. وفي الفترة نفسها كرس فلاديمير مونوماك *Vladimir Monomaque* أمير كييف حياته لمحاربة كل جيرانه، فترك ابنه سيرة ذاتية بعنوان **التعليمات** الهامة جداً بسبب الضوء الذي سلطته على الأحداث، وبخاصة على عادات زمنه. وفي الوقت نفسه ترك رئيس الوزارة دانييل *Daniel* سجل حجه إلى الديار المقدسة. وفي القرن الثالث عشر هناك دانييل آخر، دانييل السجين، كتب من منفاه البعيد إلى أميره رسالة توسلية مدهشة لأنها أسست على موهبة أدبية بارزة وغير متوقعة. وفي القرن الثالث عشر أو الرابع عشر هناك قطعتان ملحميتان **قصيدة في معركة إيغور** *Igor* و**الزودوستخينا** *Zadonstchina* ولا يعرف أي القصيدتين قلدت الأخرى، فهما سجلان للمعارك بذات القوة النابضة. في القرنين الخامس عشر والسادس عشر هناك عمل تعليمي هو **الدوموستروي** *Domostroi* الأطروحة الفلسفية، عبارةعن كراس حول الاقتصاد المحلي، يعالج زراعة الجنائن وفن الطبخ الخ. وكان القيصر إيفان *Ivan* المرعب (القرن السادس عشر) دبلوماسياً فذاً وكاتباً دقيقاً عصبياً ساخراً. ترك لنا رسائل عالية الجودة.

النهضة

كتب كوتشيكين (القرن السابع عشر) الذي كان وزيراً في بلاده، ثم غضِب عليه ونفي إلى السويد، كتاباً كبير الأهمية عن عادات معاصريه. و"النهضة" إن جاز أن تسمى نهضة، أي الصلة بين روح الأدب الروسي والعبقرية الغربية، وقعت في القرن الثامن عشر. فالأمير كانتيمير *Kantemir* السفير الروسي في لندن، الذي عرف مونتسكيو وموبيرتيوس *Maupertuis* والأب غوسكو *Abbé Guasco* الخ كتب هجائيات على طريقة هوراس وبوالو. وأخذ تريدياكوفسكي على عاتقه كتابة **تليماك** *Telemachidus* فكان عملاً مملاً جداً، ولكنه عرف كيف يتجنب منافسة قوانين الأوزان الروسية ويكتب الأناشيد التي سارت على الأقل في الاتجاه الصحيح.

لومونوسوف

يعتبر لومونوسوف *Lomonosov* الأب الحقيقي للأدب الروسي، مثل بطرس الأكبر في الأدب - رجلاً عظيماً وكان أيضاً مهندساً وكيميائياً وبروفيسوراً وعالماً لغوياً. وإذا نظرنا إليه كرجل أدب فقط فإنه قدم مقالات مميزة في التراجيديا والشعر الغنائي والشعر الملحمي فصقل النظم الروسي، وأسس قواعده، ومنح نبضاً دافعاً لكثير من الاتجاهات.

ابتكار الدراما

أسس سوماروكوف *Soumarokoff* الدراما الروسية. فكان مدير أول مسرح افتتح في سان بطرسبرج (*1756*). تأثر بالأدب الفرنسي فكتب التراجيديا والكوميديا والخرافة والهجائيات وقصائد الحكمة. وقد تراسل مع فولتير. وكتب الأخير عنه في عام *1769*: "سيدي، رسالتك وكتبك برهان كبير أن العبقرية والذوق ينتميان إلى كل البلدان. أولئك الذين يقولون إن الشعر والموسيقى ينتميان فقط إلى المناخ المعتدل هم على خطأ كبير. ولو كان للمناخ كل هذه

الفاعلية لظلت اليونان تنتج الكثير من أفلاطون واناكريون، كما تنتج الثمار والأزهار ذاتها؛ ولكانت إيطاليا ظلت تمتلك أمثال هوراس وفرجيل وأريوستو وتاسو... إن الحكام الذين يحبون الفنون يغيرون المناخ؛ يسببون ظهور ورود تبرعم في وسط الثلوج. وهذا ما فعله حاكمكم الذي لا نظير له. وأعتقد أن الرسائل التي كرمتني جاءت فرساي *Versailles* وجاءت رسائلك من إحدى كلياتي في الأكاديمية... إن لك ميزة عليّ كبيرة: أنا لا أعرف كلمة من لغتك وأنت تتقن تماماً لغتي... أجل، فأنا أعتبر راسين أفضل شاعر تراجيدي... لأنه الوحيد الذي عامل الحب معاملة تراجيدية؛ فقبله عبر كورنيل فقط عن عاطفة جيدة في **السيد** ولكن عاطفة **السيد** ليست عاطفته. والحب مضحك أو مستوحى تقريباً في كل أعماله الأخرى. أعتقد كما تعتقد أنت عن كوينول *Quinault* فهو رجل عظيم بطريقته الخاصة. وما كان له أن يكتب **فن الشعر** ولا كان لبوالو أن يكتب **أرميدا**. وأوافق مع ما تكتب عن موليير وعن الكوميديا المرعبة التي، إلى حد العار الوطني، نجحت فقط في النمط الكوميدي الحقيقي المقترب من الكمال على يد موليير الذي لا نظير له. ومنذ رينار، الذي وهب حقاً عبقرية هزلية والذي اقترب وحده من موليير، ليس لدينا سوى الفواحش فقط... هذا هو سيدي إعلان الإيمان الذي طلبته مني". وقد اقتبسنا هذه الرسالة، بالرغم من أخطائها، لأنها تشكل، إن جاز القول، **مقدمة في الأدب الروسي**، ورخصة للنبل منحت لهذا الأدب.

كاترين الثانية

كتبت الإمبراطورة بالروسية نصيحة لتربية حفيدها، وهي كوميديات محترفة جداً، ومقالات نقدية. وكان فون فيزين *Von Vizin* المؤلف الكوميدي أول من استطلع ووصف عادات بلاده، التي تعني أنه كان أقدم كاتب هزلي وطني. والمؤلفات الكلاسيكية لفون فيزين هي **العميد والقاصر**. وفي الوقت الذي يصور السلوك المعاصر، كان أيضاً يدافع عن روسيا الإصلاحية ضد روسيا التي كانت قبل بطرس الأكبر، والتي لا يزال جزء منها قائماً، معتبراً أنه المسار

الطبيعي الوحيد. قام برحلة إلى فرنسا ويبدو من مراسلاته أنه عاد بانطباع إيجابي.

رادستشيف

كان رادستشيف *Radistchef* أول كاتب روسي سياسي. وتحت ذريعة **رحلة من بطرسبرج إلى موسكو** هاجم الرق والحكم المطلق وحتى الدين، الذي من أجله أدين بالإعدام ونفي إلى سيبيريا. فعفى عنه فيما بعد بولس الأول، لكنه بعد ذلك مباشرة أقدم على الانتحار. كان مسهباً في أسلوبه، ولكنه في الأغلب فصيح حقاً.

خطباء وشعراء

الواعظ أفلاطين الذي كان اسمه الحقيقي ليفشين *Levchine* كان واعظاً مليئاً بالصدق والطيبة وأحياناً بقوة حقيقية. كان معلماً دينياً للغراندوق الوريث، ابن كاترين الثانية. هناك واعظ عظيم آخر، وخليفته أثناء حصار موسكو فينوغرادسكي *Vinogradsky* كان واعظاً عظيماً أيضاً. وهو الذي بعد التقهقر الفرنسي من روسيا، من ألقى موعظة جنائزية على الجنود الذين قتلوا في بورودينو *Borodino*. وكان أوزيروف *Ozerov* كاتباً تراجيدياً كلاسيكياً يتبع طريقة فولتير، وإلى حد ما سبب له ذلك بعض الإعاقة. باتيوشكوف*Batiouchkov* مع أنه عاش تماماً في منتصف القرن التاسع عشر، فإنه يعتبر كلاسيكياً. فقد مجد وقلد كتاب الأدب القديم؛ كان معجباً جداً بتيبولوس *Tibullus* وكتب رثائيات تعتبر ممتازة. وكان كريلوف *Krylov* كاتب خرافات: رسام ماهر للحيوانات وفكاهي إلى حد بعيد. وقد أعجب به الفرنسيون والإيطاليون، فترجموا أعماله؛ وحظي حتى أواسط القرن التاسع عشر بشعبية أوروبية.

العصر الذهبي: بوشكين

يجب أن يؤرخ القرن التاسع عشر الروسي وعصره الذهبي من بوشكين *Pushkin*. بدأ الكتابة من بواكير صباه. كان شاعراً ملحمياً وروائياً ومؤرخاً. قصائده الكبرى هي **رسلان وليودميلا** - **يوجيني أونيجين** - **بولتافا** وأشهر مقالاته التاريخية هي **ثورة بوغاشيف** *Pugachev*. صاحب خصوبة وخيال قوي، تطور عن طريق متابعة دراسة بايرون والتعصب له. لم يعمّر طويلاً لصالح سمعته أو لصالح رخاء الأدب الروسي، لأنه قتل في مبارزة وهو في الثامنة والثلاثين. وقد ترجم بوشكين كثيراً للشاعر ميريميه. وللمسرح الغنائي الفرنسي أثره في واحدة من أعظم إبداعاته **حورية الماء** *La Rousalka*. وكان واعياً تماماً لعبقريته الخاصة، فقلد على ما يبدو هوراس في *Exegi monumentum* فكتب: "رفعت لنفسي صرحاً لم يبنه ابن بشر... فلن أنتهي أبداً... فصدى اسمي سوف يخترق روسيا الضخمة... ولمدة طويلة سوف أكون عزيزاً على أبناء عرقي لأن قيثارتي تطلق العواطف الطيبة، ولأني في عصر ظالم اعتليت الحرية وكرزت الحب للمسحوقين. أوه يا ربة الفن، احملي أوامر الله، ولا تخافي عدواناً، ولا تطلبي تاجاً؛ تقبلي سواء بسواء المديح والافتراء، ولكن لا تتخاصمي مع الحمقى".

ليرمنتوف

لم يكن ليرمنتوف *Lermontov* متخلفاً عن صديقه بوشكين، الذي يشبهه كثيراً. ومثله استوحى الشعراء الرومانتيكيين الغربيين. أحب الشرق، وجاءته أفكاره القصيرة المجيدة من القفقاس. من بين أعماله الشعرية العظيمة يمكن أن نذكر **المتجدد اسماعيل بك** - **الشيطان** - **أغنية القيصر إيفان**. كتب رواية، ربما هي سيرة ذاتية بعنوان **بطل من زماننا** حيث رسم البطل بألوان بايرونية زاهية.

غوغول

تغير الذوق الروسي إلى الرواية الملحمية أو الأوبرا النثرية التي كان غوغول *Gogol* أشهر ممثليها حتى تولستوي *Tolstoy*. كان موهوباً جداً. كان حس الطبيعة فيه عالياً ونشيطاً، تذكرنا أوصافه بسهول شبه جزيرة القرم وأنهارها وأعشابها، ولا بد أن يعتبر روسو روسيا وشاتوبريانها. يضاف إلى ذلك كان يدرس دراسة عميقة عادات القرية فرسمها بألوان مدهشة. امتلك حس العظمة الملحمية وأضاف لونا من السخرية مع استهزاء خفيف. مؤلفاته **تاراس بولبا - ملك الأقزام - تاريخ الحمقى - النفوس الميتة** تمتلك قوة الواقعية الآسرة، مسرحيته **المفتش** (مفتش المالية) كوميديا ساخرة صارت من الأدب الكلاسيكي ليس في روسيا وحدها بل في فرنسا أيضاً، حيث نشر ترجمة لها الشاعر مالارميه.

تورغنيف

كان تورغنيف *Turgenev* الأقل ملحمية من غوغول يدرس أيضاً العادات المحلية وأبدع في وصفها. بدأ بداية ممتازة في **حكايات صياد** المشوبة بالحقيقة والدقة، وكذلك بالتفاصيل الحيوية والتصويرية؛ ثم وسع مداه وكتب الرواية، ولكن ليس بالطول الكبير، ولذلك لاءمت عادات أوروبا الغربية (من أمثال **الدخان**). اختار باريس لسكناه، واختلط مع مفكري أيامه الكبار: تين وفلوبير وإدموند أبوت. في نظر أبناء بلاده بات غربياً إلى أبعد حد وباريسياً أيضاً. كان لطيفاً ذا نفس حساسة، يميل إلى الكآبة والأحلام الدائمة. عبد الشكل الذي ذهب فيه بعيداً بحيث جعله نوعاً من الأخلاق والخرافة.

تولستوي

كان تولستوي، الذي توفي حديثاً، شاعراً ملحمياً كبيراً في النثر، وروائياً قوياً جداً ومؤثراً، وفي بعض المقاييس كان رسولاً. بدأ بـ **الطفولة والمراهقة والشباب** وهي بحد ذاتها قيمة وهامة بسبب الفكرة التي تحملها عن حياة إقطاعيي الوطن الروسي، ولشرحها تكوين روح تولستوي وعبقريته؛ ثم نشر

القوزاق المليئة بالأوصاف الرائعة للقفقاس والمشاهد الهامة للحياة العسكرية والريفية؛ ثم ظهرت رائعة تولستوي **الحرب والسلم** تعالج حرب نابليون مع روسيا ثم تتحدث عن الفترة التي أعقبت في السلام والحياة الريفية السليمة. من المستحيل تقديم إعجاب كاف لقوة السرد والوصف، ولخصوبة الأحداث والشخوص واللحظات الدرامية وفن التصوير، أو بالأحرى موهبة التصوير، وأخيراً عظمة الرقي الأخلاقي، والحقيقة كل الصفات ولا يبدو أنه تنقصه صفة، مما برهن عليه تولستوي برهاناً وأظهره في هذا التاريخ المكثف للروح الروسية في بداية القرن التاسع عشر؛ إذ هكذا أكمل وصف الإبداع النبيل. ويمكن تشبيه الرواية فقط برواية البؤساء لفكتور هيغو، ولا بد من الموافقة أنه على الرغم من ميزاتها التي لا نظير لها فإن الرواية الفرنسية لا توازيها. **آنا كارنينا** الرواية الوحيدة المشوبة بتأثير الروايات الفرنسية، ولكنها عميقة جداً واشتهرت بسبب تحليلها الشخصية والعواطف المؤثرة إلى جانب مستواها الأخلاقي الكبير. **سوناتا كروتزر** رومانسة أكثر منها رواية، ولكن جمالها أخاذ لأنها تعرض بألمعية متفردة بؤس نفس عاجزة عن السعادة. وتظهر **البعث** ذلك الحزن والشفقة المتقدة التي يشعر بها تولستوي نحو المتواضعين و"الساقطين" بحسب كلام بوشكين؛ إنها تحقق جمالاً درامياً رفيعاً. وقد دعا تولستوي في ألف كراسة أو عمل موجز شعبه والبشرية إلى الأخلاق الصارمة للمسيح من عفة ونكران ذات وسلام مهما كان الثمن من دون الدخول في حساب ضرورات الحياة الاجتماعية؛ ورفض لوم الفن والأدب، كما فعل جان جاك روسو، لأنه أذعن للاعتراف بأن أعماله مدانة. كانت أعماله روح شاعر مجيد وعقلاً شاعرياً رفيعاً؛ فمن شاعر لا نطلب حساً عاماً عملياً أو شعوراً بالواقع المطلوب، الضائع سدى من قبل رجل دولة.

دستويفسكي

يمكن أن يقال عن دستويفسكي، بعبقرية عظيمة مثل عبقرية تولستوي، أنه كان أكثر صرامة لأنه حصر نفسه برسم التعاسة والبؤس وأولئك المدحورين في الحياة. عرفهم شخصياً، بعد اعتقاله في عام *1849* وهو في الخمسين من عمره

بسبب جريمة انتمائه إلى جمعية سرية، فأمضى سنوات في سجون سيبيريا الإجرامية. أولئك البؤساء وصفهم بأعظم العبارات دقة وبفصاحة متعاطفة في **الموؤودون: عشر سنوات في سيبيريا** وفي رواية شهيرة بعنوان **الجريمة والعقاب**. بذل مساعدة نفيسة في الدعاية لعاطفتين خلقتا بعض الإثارة في الغرب، ولا بد من أن نهرع إلى رعايتهما وهما "دين الألم الإنساني" وعبادة "الكفارة".

الفصل الحادي والعشرون

الأدب البولندي

التأثير الغربي

باختلاف كبير عن الأدب الروسي، والأكثر عن الأدب الغربي، والتأسيس جداً على الأدبين اليوناني واللاتيني، احتل الأدب البولندي مقاماً رفيعاً في تاريخ الأدب الأوروبي. مسيحيون من القرن العاشر، فقد عرف البولونيون من هذه الفترة الأغاني الدينية التي كتبها الرهبان بلغة عامية. وإليها تعود بوغارودزيتا *Bogarodzica* وهي أغنية دينية مقاتلة مهداة إلى العذراء أم الله، التي حتى اليوم لا تزال مفهومة، لأن اللغة البولندية لم تتغير إلا قليلاً. وعلى مدى العصور الوسطى لا يجد مؤرخو الأدب إلا سجلات مكتوبة أحياناً باللاتينية وأحياناً باللغة الوطنية. وتحت تأثير الجامعات، وأيضاً الحكم البرلماني، ازدادت اللغة تماسكاً وسلطة في القرن الخامس عشر، بينما كان القرن السادس عشر المرحلة الأدبية الذهبية للبولنديين. فهناك شعراء بل حتى شعراء كبار، وكذلك خطباء ومؤرخون. وهكذا كان كوشانوفيسكي *Kochanowski* المتهافت على الغرب بصورة واضحة، الذي عاش بعض الوقت في إيطاليا، وكذلك سبع سنوات في فرنسا، وكان صديقاً لرونسار. كتاباته ملحمية غنائية تراجيدية هجائية ورثائية بوجه خاص. وهو كلاسيكي في بولندا. وترك غروشوفسكي *Grochowski* مجلداً من القصائد المتنوعة والترانيم على نصوص مختلفة من توماس كامبيس *Thomas à Kempis* بعنوان **ليالي الشوك** الخ. وترك مارتن بيلسكي *Martin Bielski* الذي كان مؤرخاً أيضاً، ولكن باللاتينية، هجائيتين سياسيتين حول ظروف بولندا

القرنان السابع عشر والثامن عشر

مع أن مرحلة القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت أقل إشراقاً من السابق، إلا أنها لم تكن سلبية لبولندا. ثم يمكن أن نعد الهجائي أويالينسكي *Opalinski* والغنائي كوشانوفسكي والدرامي بوغولوفسكي *Bogulawski* مدير مسرح وارسو *Warsaw*، الذي ترجم مسرحيات من الفرنسية والإنكليزية والأسبانية، إلا أنه كان هو نفسه كتب عدة كوميديات منها **العاشق - المؤلف - الخادم** ظلت أعظم شهرة. وكان رزوفسكي *Rzewuski* مؤلفاً درامياً كتب مسرحيات وطنية كثيرة مثل **فلادسلاس في فيرنا** و**زولكيشي** وكوميديات مثل **الإغاظة** و**المتقلب** وكان أيضاً مؤرخا وخطيباً وناقداً أدبياً ومنظراً.

كان بوتوكي *Potocki* ناقداً أدبياً ومنظراً ومؤسساً لنوع من الأكاديمية (جمعية لتحسين اللغة والأسلوب). وقد أبرز الأمير زارتوريسكي *Czartoryski* نفسه باعتباره أخلاقياً رفيعاً في **رسائل إلى دسفيادرسكي** *Doswiadryski*. نيمسفيتش *Niemcewicz* وسع موهبته الأدبية العظيمة إلى الكثير من الجهود المتنوعة. فكتب الأناشيد التي حظيت بالتقدير، وتراجيديات وكوميديات وخرافات وحكايات وروايات تاريخية وترجم قصائد البابا ومسرحية راسين **أتالي**.

النهضة الأدبية

فقدت بولندا استقلالها الوطني، فمارست نهضة أدبية متنوعة، قدمت تعويضاً ولكنه تعويض هزيل. فراحت تسعى لاكتشاف أصولها، ولاستعادة الروح القديمة، وإحياء قوميتها في الأدب. لذلك كانت أعمالها العظيمة في المعارف الوطنية. تزاكي *Czacki* في **قوانين بولندا وليتوانيا** وكولونتي *Kollontay* في **مقالة في وراثة عرش بولندا** و**رسائل من مجهول إلى ستانسلاس مالاخوفسكي** الخ. وبنتكوفسكي *Bentkowski* في **تاريخ الأدب البولندي** و**مقدمة إلى الأدب**

العام الخ. ثم ظهرت نهضة الأدب الخيالي على يد فيلينسكي *Felinski* مترجم كريبيون *Crébillon* ودي ليل *Delille* وألفيري *Alfieri* ومن جهة أخرى كان شخصياً المؤلف المميز لدراما **بارب رادزيفيل**؛ ويقدم بيرناتوفيتش *Bernatowicz* مؤلف روايات تاريخية مشهور، في **بوياتا** *Poïata* صورة لانتصار المسيحية في ليتوانيا في القرن الرابع عشر؛ والدرامي كاربينسكي *Karpinski* مؤلف التراجيديا **جوديت** والأوبرا **ألسيست** والكوميديا **سينس** *Cens* الخ؛ والباحث ميكيوفيتش *Mickiewicz* شاعر وروائي نفي من بلاده، وكان أستاذاً للأدب في لوزان *Lausanne* ثم في باريس في الكوليج دي فرانس، فحقق شعبية كبيرة في فرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا، وصديق غوته ولامينيس وكوزان وميشليه وكل الشبان الفرنسيين. كان مؤلف قصائد رائعة ورواية تاريخية عظيمة **كونراد فاتينرود** و**الشعب والحجاج البولنديون** و**درس في الدول السلافية**.

المرحلة الحديثة

على مدى زمن الكتابة تابعت بولندا كونها أمة أدبية تثير الانتباه. إنها تمثل نموذجاً للأعراق التي تحملت مخاطرة القضاء عليها كأمة بسبب ضعفها السياسي؛ وبالحفاظ على لغتها وبتقديسها في أدب عظيم حافظوا على بلادهم مثل الإغريق والإيطاليين، وأملوا أن يستردوها في يوم ما من خلال انقلابات مفاجئة في الحظ تظهر في التاريخ.

المحتوى

تمهيد 5

مقدمة..... 7

الفصل الأول: الهند القديمة 9

أسفار الفيدا..... 9

بوذا 9

الماهابهاراتا والرامايانا..... 10

الشعر الدرامي 11

شعر المأثورات 12

الفصل الثاني: الأدب العبري 13

التوراة..... 13

التلمود..... 13

الأناجيل 14

الكتابات التوراتية..... 14

الفصل الثالث: الإغريق 15

هومر 15

الإلياذة..... 15

الأوديسة 16

هسيود 16

شعراء الرثاء والغناء..... 17

كتاب النثر 18

هيرودوت..... 18

إيسوب..... 18

بندار 18

التراجيديا الإغريقية..... 19

تيسبيس؛ أسخيلوس؛ سوفوكليس..... 19

يوريبيدس..... 19

الكوميديا 20

أرستوفانيس 20

ميناندر 21

تيوسيديس..... 21

هيبوقراط 21

السفسطائيون والخطباء..... 21

الفلاسفة 22

أفلاطون..... 22

أرسطو- زينوفون- ثيوفراستس 22

الرواقيون والأبيقوريون..... 23

الأدب السكندري.....24
الرثاء والرعويات.....24
تلاميذ ثيوقريطس.....25
كاليماخوس.....25
الشعر التعليمي.....26
أراتوس- أبوللونيوس.....26
ليكورفون.....26
الإبيغراميون.....26
ميليغر.....26
بوليبيوس.....27
إبيكتيتوس- ماركوس أورليوس.....27
بلوتارك.....28
المؤرخون الإغريق.....28
لوقيانوس.....29
الشعر والرومانسة.....30
الأدب العلمي.....30
انحطاط الروح اليونانية.....30
الإمبرطور يوليان.....31
بروكوبيوس.....31
الشعر.....31
الكتاب الإغريق المسيحيون.....32
القديس يوحنا الذهبي الفم.....32
يوسيبيوس.....33
الحقبة البيزنطية.....33

الفصل الرابع: اللاتين.....35
الأدب اللاتيني.....35
لوسيليوس.....35
الكوميديا: بلاوتوس وتيرنس.....36
الأتيلية.....36
التراجيديا.....37
الأدب النثري.....37
عصر قيصر.....38
شيشرون.....38
سالوست.....39
الشعر.....39
كاتولوس.....39
لوكريتيوس.....39
العصر الأوغسطيني.....40
تيتوس- ليفي.....40
فرجيل.....41
هوراس.....42
تيبولوس- بوبيرتيوس- أوفيد.....42
الانحطاط.....42
كوينتوس كورتيوس.....43
سينيكا.....43

بترونيوس- لوقيان- مارتيال 43
جوفينال 44
عصر تراجان 44
تاسيتوس 44
أولوس جيليوس- أبوليوس 44
كتاب العصر المسيحي 45
القديس أوغسطين 45
الشعراء المسيحيون 45
الشعراء العلمانيون 46

الفصل الخامس: العصور الوسطى: فرنسا 47
أناشيد البطولة 47
جوانفيل- فيلهاردوان 47
التروبادور 48
أقاصيص الثعلب 48
الحكايات 48
الموسوعات 49
رومانسة الوردة 49
فروسار 49
شارل دي أولرليانز- فيون 50
الأسرار والمعجزات 50
المهازل والحماقات والأخلاقيات 50

الفصل السادس: العصور الوسطى: إنكلترا 51
الآداب الثلاثة 51
شوسر- غاور 52

الفصل السابع: العصور الوسطى: ألمانيا 53
أول كتاب أدبي 53
النبلونجن 53
مؤلفات مختلفة 53
الكوميديا 54

الفصل الثامن: العصور الوسطى: إيطاليا 55
التروبادور 55
نابولي وصقلية 55
بولونيا- فلورنسا 56
دانتي: الكوميديا الإلهية 56
بترارك 57
بوكاشيو: الديكاميرون 58
القرن الخامس عشر في إيطاليا 58

الفصل التاسع: العصور الوسطى: أسبانيا والبرتغال 59
بداية الأدب الأسباني 59
ألفونسو العاشر- جون مانويل 59
الرومانسات 59
القرن الخامس عشر 60
الأدب البرتغالي 60

الفصل العاشر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: فرنسا.....61
نهضة الآداب.....61
ماروت- القديس جيليه.....61
كومينز.....61
رابليه.....62
البلياد.....62
رونسار- دوبيليه.....62
الشعر الدرامي.....63
كتاب النثر: أميوت- كالفن.....63
أخلاقيون: دوفير.....63
مونتين.....63
مطلع القرن السابع عشر.....64
رينيير.....65
النفائسيون والساخرون.....65
ماليرب.....65
المسرح.....66
النثر: بلزاك- ديكارت.....66
العصر الذهبي: كورنيل.....67
راسين.....67
موليير.....68
بوالو.....68
لافونتين.....68
طاقة ثانوية.....69
كبار كتاب النثر.....69
باسكال.....70
بوسويه.....70
مدام دي سيفيني.....71
لابرويير.....71
فنلون.....72
الفصل الحادي عشر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: إنكلترا.....73
العصر الإليزابيثي: سبنسر.....73
المسرح: مارلو.....73
شكسبير.....74
بن جونسون.....74
كتاب النثر: ليلي- سيدني- بيكون- بورتون.....75
الشعر: وولر.....75
هربرت- هابنغتون.....76
الشعراء الدراميون.....76
ملتون.....76
كتاب النثر البارزون.....77
نيوتن- لوك.....78
الفصل الثاني عشر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: ألمانيا.....79
لا نهضة.....79
لوثر.....79
الإصلاحيون.....80

إراسموس- ألبرت دورير- غوتشيد 80
ليبنتز 80
الفصل الثالث عشر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: إيطاليا 81
القرن السادس عشر 81
أريوستو 81
تاسو 82
بيرني 82
سانازارو 82
مكيافيلي 83
باندیلو 83
غيشياردیني 83
فولينغو 84
أريتينو 84
بيمبو- بالدي 84
تانسيلو- دولشي 84
بنفينوتو سيليني 85
هانيبال كارو- غواريني 85
انحطاط الأدب 86
سلفادور روسا- تاسوني- مافي 86
مؤرخون ونقاد 87
الفصل الرابع عشر: القرنان السادس عشر والسابع عشر: أسبانيا والبرتغال.....89
الشعر: كويفيدو- غونغورا 89
لوب دي فيغا 90
أركيلا 90
مندوزا 91
غويفارا 91
الرومانسة 92
كويفيدو 92
سرفانتس 93
الدراما: فرديناند دي روياس 94
كالديرون 94
ألاركون 95
تيرسو دي مولينا 95
فرنسيس دي روياس- كاسترو- دياماننتي 96
كتاب البرتغال 96
شعراء الملاحم 97
كامونس 98
الدراميون 99
فيريرا 99
جيل فيسنتي 100
الفصل الخامس عشر: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: فرنسا 101
فونتينيل 101
بابيه 101
لاموت 102

ج.ب. روسو- بوميينان 102
الهنرياد 103
شعراء الدراما 103
كريبيون 103
شعراء الكوميديا 104
رينارد 104
الدراما: لاشوسيه 104
بيرون 105
كتاب النثر الكبار: مونتسكيو 106
لوساج- سان سيمون 106
ماريفو- بريفو 106
التاريخ- الدراما 107
فولتير 107
الفلاسفة 107
بوفون- مارمونتيل- ديليل 108
المسرح 108
أندريه شينييه 109
برناردين دي سان بيير 109
الخطباء الثوريون 109
القرن التاسع عشر 110
شعراء كبار: لامرتين 110
فكتور هيغو 111
ألفريد دي فيني 111
موسيه- ثيوفيل غوتييه 111
كتاب النثر: شاتوبريان 112
مدام دي ستايل 112
المؤرخون 113
الفلاسفة 113
الرواية 113
الأدب غير الرومانتيكي 114
المسرح 115
الرومانتيكية والواقعية 115
الشعراء المشهورون 116
الأدب الواقعي 117
الطبيعية 117
الوضعيون 118
تين 118
برونتيير 119
الدراما المعاصرة 119

الفصل السادس عشر: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: إنكلترا 121
عهد الملكة آن 121
كتاب النثر 122
التاريخ 123
المسرح 123
شعراء البحيرة 123

المرحلة الرومانتيكية 124
الروائيون 125
التاريخ 127

الفصل السابع عشر: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: ألمانيا 129
عصر فريدريك الأكبر 129
الشعراء 129
ليسنغ 130
هردر 130
المرحلة المجيدة 131
كورنر 131
شيللر 131
غوته 132
الفترة المعاصرة 133

الفصل الثامن عشر: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: إيطاليا 135
اليقظة الأدبية 135
كتاب النثر البارزون 135
القرن التاسع عشر 136
المحدثون 136

الفصل التاسع عشر: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر: أسبانيا 137
الدراما 137
النثر 138
الرومانتيكية 138
القرن التاسع عشر 139

الفصل العشرون: الأدب الروسي 141
العصور الوسطى 141
النهضة 142
لومونوسوف 142
ابتكار الدراما 142
كاترين الثانية 143
رادستشيف 144
خطباء وشعراء 144
العصر الذهبي: بوشكين 145
ليرمنتوف 145
غوغول 146
تورغنيف 146
تولستوي 146
دستويفسكي 147

الفصل الحادي والعشرون: الأدب البولندي 149
التأثير الغربي 149
القرنان السابع عشر والثامن عشر 150
النهضة الأدبية 150
المرحلة الحديثة 151

التنسيب الأدبي: برنامج الثقافة الأدبية/ إميل فاغية؛ ترجمة حنا عبود. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2021. – 160ص؛ 25سم. – (سلسلة الترجمة؛ 1).

1 – 809 ف ا غ ت 2- العنوان 3- فاغية 4- عبود 5- السلسلة
مكتبة الأسد